كتــاب النخـل فـي

باصورا

814
خ ٦٩٤ خضـير، محمد
كتاب النخل في باصورا / محمد خضير
ط١، البصـرة، ديـوان محافظـة البصـرة، ٢٠٢٤م
٢٠٢٤م، ٦٨ ص. ، ٢٤ سم
١. المقالات العربية، أ. العنـــوان.
رقـم الايداع
٥٠١ / ٢٠٢٤م

المكتبـة الوطنيـة / الفهرسـة أثنـاء النشـر

رقـم الايـداع فـي دار الكتـب والوثـائـق ببغداد (٥٠١) لسنـة ٢٠٢٤م

طبـع فـي

جمهورية العراق - محافظة البصرة

برعـايـة

ديوان محافظة البصرة

كل الحقوق محفوظة للناشر

جميع الحقوق محفوظة باستثناء اقتباس فقرات قصيرة لغرض النقد أو المراجعة، فلا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام الاسترجاع أو نقله بأي طريقة من دون الحصول على إذن مسبق من الناشر.

All rights reserved. Except for the quotation of short passages for purposes of criticism or review, no part of this publication may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, without written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
2024

ديوان محافظة البصرة
BASRA GOVERNORATE
Republic Of Iraq - Basra Governorate
www.basra.gov.iq/ar

تصميم
جولان المظفر

البصرة
تاريخ عريق وثقافة متجددة
سلسلة إصدارات تهتم بالشأن البصري تصدر عن ديوان محافظة البصرة

كتاب النخل في باصورا

محمد خضير

ديوان محافظة البصرة
2024

04

البصرة الكبرى

يوم أن ولِدتُ كان اقتصاد البصرة قائماً على دعائم عددٍ من المنشآت والمصالح الكبرى: شركة النفط، الموانئ، السِّكك الحديد، شركات التُّمور؛ وكانت هذه المنشآت تحرِّك الدورةَ الكبرى للحياة اليومية في مدينة عُرفت بكثرة الأنهار والسُّفن، وزراعة النخيل، واستخراج النفط، وتبادل المنافع التجارية عبر البرّ والبحر.

فإذا أضفنا إلى تلك المصالح والمنافع منشآتُ البّرق والبريد والنقل والمصارف والبورصات (العلاوي والمزادات) صِرنا على اطلاع كامل بدورة الحياة المتحكِّمة في الأسواق والمدارس والمحاكم والسّجون والمستشفيات والمطابع والمكتبات والصُّحف على اختلاف أنواعها وأسمائها. ولا نستثني من هذه الدورة العظيمة مصالحَ الناس الخاصّة وما يجنونه من مال وجاه، وما يتداولونه من بضائع وصناعات، طبقاً لنظام «الأصناف» المعمول به منذ نشوء الدولة العبّاسية.

فالبصرة شأنها شأن المُدن التي أُنشِئت في صدر الإسلام، عُرِفت بتنوّع أسواقها واختلاط سكّانها وتعدّد لغاتهم واختلاف صناعاتهم، لوقوعها في مفترق طُرق التجارة بين الشرق والغرب. فلما تسيَّدت صناعةُ النفط هذه المدينةَ، واستقبلَت موانئُها سُفنَ النقل العملاقة، واتّسعت تجارتها مع العالم، ودخلت آلةُ الحرب إليها بدخول القوات البريطانية ميناء الفاو عام ١٩١٤، تغيّر نظامُ «الأصناف» التجاريّ ودُحِرت علاقاتُ الإنتاج القديمة، ليحلّ بدلَها نظامُ الإدارة الرأسمالية والسّوق الحرّة ووفرة الأرباح الناتجة عن المنافسة وتبادل السِّلَع.

لكنّ الحقيقة التاريخية التي لا تغفلها العينُ والذاكرة، هي أنّ «البصرة الكبرىٰ» ـ كما رَسَمَتْ خططَها كتُبُ الأوّلين والآخرين، من المؤرخّين والرّحالة والأدباء ـ حافظت علىٰ دورة حياتها الاعتيادية وعلاقات إنتاجها الحِرفيّ والمنزليّ في عصر الاستعمار البريطاني وهيمنة الشركات الاحتكارية علىٰ اقتصادها. ويوم ولِدتُ في بداية الحرب العالمية الثانية، كان منزلنا ورشةَ عملٍ صغيرة تستقبل أصنافَ التّمور المعبّأة في صناديق خشبية، لغرض تنظيفها من النَّوىٰ والحَشَف، ثم إعادتها إلىٰ المكابس كي تكبِسها وتبيعها لتجّار الخليج العربي وآسيا. فيما كانت ورشات أُخَر تختصّ بِحِرَف منزلية أخرىٰ كالحياكة والخياطة وصنع الآلات الحديدية والخشبية المختلفة.

كانت متعتُنا في فصل الصيف الخروج إلىٰ ساحل شطّ العرب لمشاهدة السّفن (الأبوام) القادمة من إمارات الخليج، ترسو مدّة موسم قطْف التُّمور وكبْسها، ثم تغادر بعد أن تشتري التَّمرَ من ملّاكي البساتين وتُجّار السوق، معبأً في (قوصرات) مصنوعة من خُوص النخيل. أمّا الأنواع الجيّدة من التّمور فتكبِسُها شركاتٌ أجنبية، بريطانية وأمريكية، وتشحنُها بماركات مطبوعة في سُفن تجارية كبيرة، تمخر شطَّ العرب خارجة إلىٰ عرض البحر، تتبعها (الأبوام) التي تنشر أشرعتَها باتجاه الرّيح.

وأحياناً كنتُ أصحبُ والدي ـ الميكانيكيّ والسائق لزوارق إحدىٰ شركات التّمور الأجنبية ـ إلىٰ أعماق بساتين الجانب الشرقيّ من النهر، لزيارة مكبسٍ مختفٍ بين النخيل، أو لصيد الطيور في هور (الحويزة) مع ثلّة من «الأصحاب» حُمْر الوجوه. آنذاك اكتشفتُ جزءاً من دورة البصرة الكبرىٰ في (الصالحية) و(كوت السيّد) و(كتيبان) و(كردلان) و(الكِباسيّ) وغيرها من قرىٰ الجانب الشرقيّ، فيما اكتشفَ غيري الحياةَ اليوميّة بالقرب من آبار النفط وسِكك الحديد وأرصفة الميناء،

حيث الصيف يرسم على أجساد العمّال البصريّين الفتيان علامات البلوغ الجنسيّ ـ المبكّرة، وأبجديات اللغة السرّية للجماعات السياسية الوليدة ـ وهي أعجوبة البصرة وحدها: أن يختلط الشغفُ الإنساني الطبيعيّ والوعي السياسي الثقافيّ، بأعمق طبقاته ودلالاته الريفيّة والمدنيّة، وأعنف انقلاباته الظاهرة أو أكثرها رقّة واختفاء بين الضلوع. ولا عجب أن ينطبع الأدبُ البصريّ ـ شعراً ونثراً ـ بهذا الامتزاج الطبيعي المسالم، والفوران الثوريّ العنيف، في نسيج متجانس الصُور والألوان.

أشعرُ، أنّني كنتُ بالغاً ـ في السادسة من عمري ـ عندما سُجِّلتُ بمدرسة (غازي الابتدائية) في العشار عام ١٩٤٨، مرتدياً ملابس الكبار، بقَصّة شَعرٍ عصرية، وأنيّ أصبحتُ على عِلمٍ بدورة الاحتجاج السياسيّ الشعبيّ ضد معاهدة (بورتسموث) في بغداد ١٩٥٢، عندما كنت في الصف السادس الابتدائيّ، ثم بحرب السويس ١٩٥٦ في مرحلتي الدراسيّة المتوسّطة. كما لم أكن جاهلاً بتسمية (البصرة الكبرى) التي وردَت أوّل مرة في (الرواية الإيقاظية) التي ألّفها سليمان فيضي عام ١٩١٩، حين دفعَني فضولي للبحث عن كراريس أدبيّة بين بسطات الصُّحف في زوايا الأسواق التجارية، قبل تخرجي في المدرسة الثانوية بالعشار العام ١٩٥٩. آنذاك كنت أحاول الكتابة القصصيّة، فنشرتُ قصّتين في جرائد العاصمة بغداد، عن عمّال تصليح الزوارق والسُفن على مزلق الجزيرة النهريّة (الدوكيارد) في شطّ العرب.

كانت الملامح البسيطة لحياة الفلّاحين وعمّال المكابس، وانفعالات حمّالي خانات التجّار على الساحل والإسكافيّين الفيليّين، وملّاحي الزوارق، قد بسطَت هدوءاً وسطوةً خفيّة على روحي؛ فيما كانت المدينة الكبيرة تتسع حولي، شيئاً فشيئاً، حتى صِرتُ أبحث عن لغة مختلفة لنصوص المناهج الدراسية، وانطباعات ساخنة لم أعتدها في وجوه المدرّسين الذين تعاقبوا على إرشادي نحو الحياة الجديدة خارج

الجدران السميكة لصفوف المدرسة الثانوية ومختبراتها العلمية ومكتبتها الغزيرة بالمخطوطات. كان القيظ الشديد لمناخ البصرة الصيفيّ قد عجّل من بلوغي السياسيّ والأدبيّ حالما اجتزتُ المرحلة المتوسّطة، إلا أن جهلي بدورة البصرة الكبرىٰ استمرّ حتىٰ أزاله مدرّسُ اللغة العربية الذي تحدّث عن الرواية في إحدىٰ المحاضرات، ودفع بكياني الضعيف علىٰ دراجة (فيلبس) سريعة من صنع ذلك الزمان لترتطم بحاجز الرواية الذي أيقظَني من حلم البساتين البدائيّ، وأحاديثها الشفاهيّة.

وخلال ذلك، تعرّفتُ علىٰ دورة التّجارة المباشرة لسوق التّمور، وكانت إحدىٰ الصُّحف المحلّية تنشر إعلانات عن كلّ شيء يخصُّها، بما في ذلك أخبار التجّار وتعاملات ملّاكي البساتين وأصحاب المصارف وتبادل العملات النقدية، إضافة إلىٰ أحدث مكائن السَّقي والراديوهات والمراوح وغير ذلك من مخترعات مستورَدة. ولم يطُل الحال، إذ دخلتُ يوماً قبوَ إحدىٰ مطابع الصُّحف، وحبَّرتُ أصابعي بحروف الرَّصاص المصنَّفة في رفوف علىٰ منضدة عالية. تعرّفتُ علىٰ الطبّاع الذي شرح لي مهمّته ـ وقتَ زيارتي له ـ في تنضيد مقالٍ عن شركة التمور، كتبه أحد وجهاء البصرة. كنت أتابع عمله في صفّ الحروف الأخيرة علىٰ لوح من الزّنك المحبَّر، وكان دويّ خافت لماكنة الطّباعة يأتي من عمق القبو شبه المظلم. كانت صورة ما، ترسمُها الحروفُ الطّباعيّة، ستظهر بأعجوبة، علىٰ بُعد أمتار من مقدّمة الورشة، بل علىٰ حافة وعي يتكوّن بسرعة هائلة، تفوق سرعة ارتصاف الحروف علىٰ الورق. كانت «البصرة الكبرىٰ» تُولد من جديد، وتنشأ في ذروتها التي تغني عن الحديث الشِّفاهي ـ الكتابة التي تحفُر في طبقة عميقة تحت الجذور؛ أم أنّي كنت أفضّل تعبيراً آخر مثل: الارتقاء إلىٰ قِمم النخيل؟

أُنشِئت شركةُ التُّمور العراقية عام ١٩٥٢، وحلّت وسيطاً بين التجّار والملّاكين، ثم علمتُ أن بناية الشركة مع بضعة منشآت غيرها (قبّة الميناء وأرصفته ورافعاته، محطّة القطار وعرباته وسِكّته، فندق المطار ونزلائه، المصارف والمزادات، دائرة البرق والبريد) تتحكّم في الدورة الدقيقة لحياة البصريين بين البحر والصحراء وفي أعماق بساتين النخيل. ولمّا اكتملَ بناء المنشأة العملاقة لشركة نفط الجنوب عام ١٩٨٤، نهض خيالي ليقارن بين صَرح الشركة المعروف ب(الزقّورة) وقلعة الروائيّ الألمانيّ فرانز كافكا (١٨٨٣-١٩٢٤). بدَت لي الطبقاتُ الثماني لبناية (الزّقورة) حين شاهدتُها أوّل مرة من بعيد، أشبه بحلم غامض ينتظر أن أحولّه إلى نصّ سرديّ أحصي فيه ارتفاعَ البناية وتشابكَ ممرّاتها وعددَ مكاتبها وموظفيها_ وهذا شعوري عندما زرتُ قبوَ المطبعة منذ سنوات بعيدة؛ وما زلتُ أشعر حتى اليوم بنقصٍ ما في معرفتي بدورة «البصرة الكبرى» كما تصوّرها سليمان فيضي في روايته (الإيقاظيّة) عام ١٩١٩.

تتحوّل البصرة، يوما بعد يوم، إلى ذاكرة كبرى، تتطلّب الإحاطةَ بدورتها وأرشفة حياتها اليوميّة ووثائقها وأشخاصها (أولئك الروّاد الذين بَنوا تصورَّهم المستقبليّ للمدينة في أوائل القرن العشرين، في زوايا المقاهي والمطابع ومكابس التمور، وعلى السُّفن سواء بسواء). لا يكفي كتابٌ مختصَر لجمع الأشتات الطبيعية والإنسانية، لمدينة تنمو بصورة مَكوكية. ولا يستطيع متحفٌ في بنايةٍ ذات جدران سميكة من جمع وحفظ كل ذلك اللّمام المبعثَر، أو المصفوف كحروف الطباعة، في نسَق منتظم.

كيف تنتظم المنمناتُ والصناعات اليدويّة والأزياء وكتُبُ التعليم والرّوايات والصّحف والرسائل والرّايات والشعارات والطوابع والصُور والأيقونات

والتماثيل، ممّا تداولته الأجيال والكوكبات الإثنيّة المُسلمة والمسيحيّة واليهوديّة والأرمنيّة والصابئيّة والهندوسيّة خلال دورةٍ كبرى، من تاريخ البصرة!

وكيف لكتابٍ يضمّ الأصوات والإشارات، على اختلاف لمحاتها ورسومها، يدوم في إهابٍ ورقيّ، مقاوم لأعراض التّلف والضياع!

يا للمدينة العجيبة! ويا للمهمّة الصعبة!

تحديث في ١/ ١/ ٢٠٢٤

البصرة ـ الإسكندرية

تُوفيت المهندّسة العراقية «زها حديد» ولم تقدّم تصميماً مدنياً واحداً لمشروع عصريّ، يُقام في بلدها الأصلي العراق، مثيلاً للتصميم الذي اقترحتْه لتطوير أرض المعارض المصرية (كايرو أكسبو سيتي)، أو لمحطّات المترو والجسور والمتاحف في مواقع مختلفة من العالم. يتساءل الحضريّون العراقيّون عن المسافة الشائكة التي فصلَت «زها» عن الأرض العراقيّة، فلم تحتضن ضفافُ دجلة أو شطّ العرب واحداً من تلك الأجنحة الطائرة لتصميمات المهندّسة العالمية بلمسات رافدينيّة على بيئة نائخة بثِقلها المعماريّ الصحراويّ.

كان هناك أمل في أن يرتفع قرصٌ للشمس من بين صفوف النخيل جنوبي العراق ليشعّ بما شعَّ به أثرٌ سومريّ استقرّ في المتحف العراقي، وضاع مع غيره من الآثار في غزوة ٢٠٠٣ للعراق(*).

لا أعرف كيف ضاعت هذه الفرصة الحضارية، لكنّني لا أزال أتخيّل المنظر الفضائيّ لزاوية التقاء الأنهر الثلاثة في القُرنة (دجلة والفرات وشط العرب)، والمنبسطات السَّهلية التي ستضيف زها حديد لمساتِها على هذا الموقع، وما ستزيده

* توفيت المهندسة العراقية زها حديد في نهاية شهر مارس ٢٠١٦ بولاية فلوريدا بالولايات المتحدة الأمريكية. والمبنى الوحيد الذي صممته زها في الجادرية ببغداد كان برج البنك المركزي ببغداد العام ٢٠١٠، وشَرَعت في بنائه شركة أذربيجانية غداة وفاة المهندسة زها أواخر العام ٢٠١٨، ومن المقرر الانتهاء منه في ٢٠٢٤.

مهندستُنا من امتداد قد يضاهي تصميم ذلك القُرص الدائريّ المائل لمكتبة الإسكندريّة، شاهداً على اضطجاع الرّوح المصرية الحكيمة بين أذرع النّور والمعرفة والحداثة المادّية إلى أزمان قادمة(*).

تستحقّ مدينة الورّاقين (البصرة) التي يلهو سكّانها بألعاب الزمن القديمة، استراحةً وسط غابة من النخيل تتوغّل طُرُقُها إلى قلب بناءٍ مبنيّ على سبيل التناظر والتقابل مع مكتبة الإسكندرية. لا حدود لهذا المنظر الافتراضي، حيث تتسلسل المباني من ملتقى شط العرب حتى مصبّه، على جانبي كورنيش طويل (لم يُستغَّل من طوله حالياً غير كيلومتر واحد). ولا عائق أمام هذه النظرة التي تستخرج من السّهل الطينيّ تصميماتِ الخامة السّمراء، وجماليّات البيئة الخضراء، ومُوحيات الجدَل المعرفيّ الكلاميّ، الممزوج من هدوء الطبع الإنساني وثورته على الجمود العقلي، هذا الذي قد يُسمّى بحوار المدن القديمة، وطريق المعرفة المتّصلة بين إسكندرية الفكر الأفلوطينيّ وبصرة الفكر الإسلاميّ، وما يجاورهما ويقع على خَطّي نهضتيهما من حواضر التنوير والتمدين العربية.

لا تضمّ البصرةُ العظمى (بتسمية سليمان فيضي، أحد مثقّفي مطلع القرن العشرين) في حاضرنا هذا بناءً واحداً قادراً على استباق حركة الزمن الكوكبيّة، ولا يشهد مُربّعٌ من مُربّعاتها الآثاريّة أساساً من الأسس التي بُنِيت عليها حواراتُ فلسفة الإشراق في القرون الهجرية الأربعة الأولى، ولا يُسرِع بالظهور نجمٌ مذيَّل على

* شُيّد المبنى الجديد لمكتبة الإسكندرية بتعاون مع منظمة اليونسكو، في موقع قريب من موقع مكتبة الإسكندرية القديمة التي بناها البطالمة من خلفاء الإسكندر الكبير في القرن الثالث قبل الميلاد. صمّم مبنى المكتبة الحديث فريق من شركة سنوهتا النرويجية، ونفّذت البناء شركات مصرية وإيطالية وإنجليزية. وافتتح المبنى الجديد للمكتبة في السادس عشر من أكتوبر ٢٠٠٢.

منحنى مستقبلها؛ فهي اليوم مُربّع للصمت المطلق، يهرع كلامي إليه ليبني تصوّرَه عن مدينة القواقع والأحياء البرمائيّة التي تنزلق على سطوحها أفكار الاتصال اليوتوبيّة، القريبة والبعيدة. وأقرب تصوّر للمبدأ التصميميّ لمنشآت كورنيش البصرة- كما قد يتبادر للخيال- سيفارِق وظيفتَه الأصلية ليلتحق بوظيفته الجمالية المكوّنة من سلسلة قواقع حلزونية المظهر، ترتفع في الفضاء وتتبادل الوظيفةَ الاتصالية بالزمن والمعرفة، التاريخ والطبيعة، بأرقى مظهر معماريّ.

إنّه حلم من أحلام النهر الشائخ يفرزها يومياً على ضفتيه، في حركة تشكيلٍ دائبة للصمت النابع من دِرع الطبيعة. حلمٌ يرتقي لتصميمٍ من تصاميم زها حديد غير المنفَّذة، مركزهُ هذه الحركة الطبيعية اليومية للنهر، وما قد يُفرِزه مشغلُها الجماليّ والمعرفيّ من خيالات وتصاميم. أمّا أعلى قمّة في هذا التشكيل البصَري، فستمثله قوقعةٌ هائلة الحجم ذات فضاء داخليّ حلزونيّ، يناظر الجوفَ الفضائيّ لقُرص مكتبة الإسكندرية المدفون في الأرض، ومشغله الاتصاليّ، متعدد الوظائف، على سطحه.

نُصُبٌ على شاطئ البصرة المديد، سيكون دالاً على زمن الجاحظ والفراهيديّ والحريريّ وإخوان الصفاء، يقودك إلى الاتصال بالفترة البطلميّة للإسكندرية، ونسختِها الحديثة التي صوّرها كفافي وداريل والخراط في زمننا، في مزيج من تطلّعات الروحَ المصرية الشغوفة بالأسرار.

البصرة- الإسكندرية توأما الضوء والرّياح، مثالا المدينةِ الممزوجة برحيق العصور والثقافات، والكلمات المفتاحيّة للغات. استبدلت البصرةُ عمرانَها مراراً، ونَسَخَت خططَها من عمران إلى خراب، ومن خراب إلى عمران، مراراً عبر العصور، حتى هَجَرَت الصحراء واستقرَّت على جبهة النهر. أنشأت لها أسواقاً لاستقبال تجارة الشّرق، وكيَّفَت أسرارَ حريمها لطراز معماريّ من الشُّرفات الخشبية

سُمّي بالشناشيل. تخلّتْ عن خيمتها الصحراويّة لتتاخم بيئةً بحريّة كانت تأتيها بعجائب البضاعات وأصناف المخلوقات، وتخرُج من موانئها سفُنُ السّندباديّين المغامرين إلى جزر المحيطات. انتقل إرثُها الشفاهيّ ليقيم في صوامع الطباعة التي جاءت بها حملات أوربا الاستعمارية مع أحدث المخترعات. لكنّها بين حلمٍ وآخر تستفيق على نصّ لم يكتمل، وتصميمٍ ضاع سبيله إليها، فتستدير إلى توأمها الإسكندرانيّ، تستوحي ظلَّه القديم، وإشعاعَه الحديث.

مقابل التوأم البصرياثيّ، اصطبغَ التوأمُ الإسكندرانيّ بمعمار الأقوام التي غزَتْها أو هاجرَت إليها منذ تأسيسها على يد الإسكندر المقدونيّ العام ٣٣٢ قبل الميلاد. حاولت الهويّةُ المزدوجة للإسكندرية أن تخطّ وسائطَها العابرة للتحوّلات السياسية وأن تستبقي لها ما يدلّ على قبولها القسمة بين الإرث الاستعماري، العثماني والأوربي، فتمسّكت بفنارها البحريّ ومسرحها الرومانيّ وبأسوار قلعة قايتباي وسراي رأس التين وقصر المنتزه ومحطة الرَّمل وكوم الدكّة، ثم أخلَت المكانَ القديم في حيّ الشاطبيّ لقُرص المكتبة المائل على أنقاض مكتبة بطليموس، لكي يمتصّ الفائضَ الثقافي في الشرخ المتأصل في هويّتها، والتنافر السكّاني المتعايش في بيئتها.

وبعد أن مكّنت الإسكندريةُ الأهواءَ الأجنبية من ناصية أسواقها وملاهيها، وأعطَت أ. م. فورستر مادةَ دليلهِ المفصّل لمعالمها، ولورانس داريل شخصيات رباعيّته الروائية الداعرة، وقسطنطين كفافي قصائدَه الكفيفة، عادَت فاحتوت الشخصياتِ النقيضة للإرث الغريب في روايات نجيب محفوظ وأدوار الخراط وإبراهيم عبد المجيد وبهاء طاهر، وقبلَت بإضافة وجودهم البلديّاتي على متن هويّتها الأممية؛ كلّ ذلك لأنّ البحر الذي أنجبَها من ظلماته مازال يطالبها باستقبال هجراتٍ وحملات يولسيسيّة من الجانب الآخر للعالم.

أنْ تأخذك الإسكندرية إلى البصرة، أو تدير بصَرَك عن توأمها فتضيع منك؛ أن تقتبس رؤياك من حوضها المُزبِد بالهويّات العابرة أو تهاجر إليها بهويةٍ بصرياثيّة فقيرة؛ لن تجِد ما هو أقرب إلى قلب الإسكندرية من هذه القصيدة التي كتبَها قسطنطين كفافي عن مأساة أنطونيو:

«عندما تسمع في منتصف الليل فجأة، فرقةً من المغنّين، تمرّ في الطريق غير مرئية، بموسيقاها الصاخبة، بصياحها الذي يصمّ الآذان، كُفَّ عن أن تندب حظّك الذي ضاع وخطّطْ حياتَك التي أخفقَتْ، وآمالَك التي أحبِطت، دعْ عنك التوسّلات غير المجدية.

وكُنْ كمنْ هو على أهبة الاستعداد من قديم، كشجاع جريء، ودّعْها، ودّع الإسكندريةَ التي ترحل.

وبالأخصّ، حذار أن تُخدَع، لا تقُلْ إنّ الأمر كان حلماً، وهماً في أذنيك وكذباً؛ أمالٌ بالية مثل هذه لا تُصدِّق.

كمَنْ هو على أهبة الاستعداد من قديم، كشجاع جريء، كما لو كنت أهلاً لها حقّاً، أهلاً لمدينة مثل هذه، اقتربْ بخطى ثابتة من النافذة، واستمعْ بحزن، ولكن بلا توسّلات جبانة، ولا شكاوى ذليلة.

استمعْ حتى النهاية إلى الأصداء المبتعدة، واستمتعْ بها، استمتِعْ بالنغمات الرائعة من الفرقة الخفيّة التي تمضي إلى الزّوال.

ودّعْها، ودّع الإسكندريّةَ، الإسكندريّة التي تضيع منك إلى الأبد».

٨/ ٧/ ٢٠١١

البصرة ـ أصيلة

بين البصرة العراقية وأصيلة المغربية أكثر من رابطةٍ تاريخية، ومرجعيّة ثقافية. فالمدينتان كلتاهما واقعتان على طريق الهجرة والاستعمار، وقد مرّت كلتاهما بمراحل من الكمون والاستثارة، تركت أثراً طبيعياً جميلاً على سيمائهما، ونزوعاً شعبياً للعمل الحِرفيّ اليدويّ لدى أهلِهما. إلا أنّ «أصيلة» استطاعت أن تحوّل آثارَها الاستعمارية إلى مزاراتٍ ثقافية، كقصر الريسوني وبرج القمرة، وحافظَت على أسوارها البحرية وبوّابتها الحجَرية، وصبغَت جدرانَ بيوتها باللوحات الكبيرة، وارتقَت بصناعاتها الشعبية إلى مستوى الورشات الحِرفية؛ بينما خمدَت مواسمُ البصرة تحت ظلال القصور العثمانية والبريطانية المخرَّبة، منذ أن توقّفت تجارة التُّمور، وانقطعت البواخر والسُّفن البخارية والشراعية عن دخول شطّ العرب. ولكي تستوي المقارنة على محاسن المدينتين، لا سبيل للبصرة الخضراء إلا أن تُعيد صِلتَها بأصيلة البيضاء، فتبدأ بفتح طريق تجارتها القديم، وتحثّ طبيعتَها النهرية على الانفتاح، ومزاولة عملها الأساسيّ في إعادة العمران، واستثمار الجمال النائم تحت جذوع النخيل. والأهمّ من كلّ ذلك، لابدّ للبصرة أن تدعو النُّخبَ العراقيّة إلى تتبّع أعمال النَّخب المغربيّة النشطة في تجارب الانفتاح والتنوير، وابتداع مواسم الابتكار الأدبيّ والفنيّ.

كانت «أصيلة» بلدةً بَحريّة، لفظَها المستعمرون البرتغاليّون على ساحل المحيط الأطلسيّ، فانتشلَها «وزيرٌ» من أهلها ومنحَها قلبَه وحياتَه وأعادَها إلى مكانها تجاه البحر، تتنفس من جديد هواءَ العصر ـ الحديث، وتغتسل بأمواج الهجرة الثقافية

موسماً بعد آخر. كانت «أصيلة» فكرة في رأس رجلٍ مغامر، محبّ لفنون التصوير، شاركَه في حَملها رجالٌ مغامرون محبّون للحوار الثقافيّ، ثم شاعَت الفكرة في رؤوس أهل المدينة المنتِجين، الحرفيّين والصيّادين والفلّاحين، فاحتضنوها بِحِسّهم الفطريّ. أصبحت «أصيلة» بعد ثلاثين موسماً ثقافياً مركزاً لطُرُق تتفرّع إلى جهات العالم المختلفة، وتوأماً بحريّاً يرتبط حبلُه السرّي بمُدُن تُماثِلها في القِدَم والأصالة العمرانيّة. ولا أرى ما هو أبدع وأبعد تحديثاً وتعميراً من هذه المدينة البحريّة، سوى أن تنتظر مُدُن العراق دورَها لتعقد مواسمَها بمواسم «أصيلة»، بعد أن سبقَها الشاعر «بلند الحيدري» فمنحَ المدينة جائزةً باسمه الشِّعريّ.

بدأت مواسم «أصيلة» الثقافية عام ١٩٧٨، عندما انتدبَ محمد بن عيسى وصديقاه الطاهر بن جلون ومحمود المليحي أنفسَهم لإنشاء (جمعية المحيط الثقافية) المستقلّة التي انبثقت عنها فكرة موسم «أصيلة» الأوّل. لقِيَت الجمعية منذ تأسيسها مساندةً قويّة من مفكّري المغرب وأدبائه مثل المفكّر محمد عزيز الحبابي والروائي مبارك ربيع والمترجم المهدي اخريف، مقابل برود الفئات المجتمعية المحافظة واعتراضها على المشروع. وبعد أن صار اسم الجمعية (مؤسّسة منتدى أصيلة) نالت مؤازرة كبار فنّاني العالم ومفكّريه، ويرجع ارتقاء مواسم «أصيلة» إلى عزيمة منشئها الوزير «محمد بن عيسى» ووقوفه بوجه عوامل الإحباط والعوَز المادّي (رَهَن بن عيسى بيتَه لتمويل أحد المواسم، لمّا تأخّر الدّعم الحكوميّ لمشروعه) وإلى خبرته العملية في فنون التصوير وعلوم الاتصال الحديثة التي درسَها في القاهرة وأمريكا، وإلى موقعه سفيراً ووزيراً وموظّفاً في منظّمات الأمم المتحدة. أمّا العامل الحاسم في تقدّم مواسم «أصيلة» فيرجع إلى تقصّي النّخبة المغربية ملامحَ الفترة التاريخية التي أحاطَت بنشوء الجمعية، والعمل في محيط من الأزمات والمواقف الصعبة. يقول بن

عيسى في هذا الشأن: «نشأ موسم أصيلة في أوج الحرب الباردة، وفي أوج شَتات النّخبة العربية والإفريقية، كما عَرَفَت هذه الفترة، في كثير من الأحيان، أزمات بين النُّخَب والسّلطة، وانبعاثاً جديداً كذلك للحركات المطالبة بالديمقراطية، وحقوق الإنسان، والحريّات العامة».

كانت «أصيلة» بلدة صغيرة تواجه البحر بِسُورٍ متهدّم وبيوتٍ واطئة، يقتل أهلَها المللُ والفقر، حين رفعَت نُخبتُها الممثَّلة في المجلس البلديّ شعارَ: «الفنّ والثقافة من أجل التنمية» لتجديد روحها التاريخي، وتنشيط جمالها المدفون في القُمامة التي تملأ الأزقّة. نجحَ الشِّعار في اجتذاب فنّاني المغرب إضافة إلى عددٍ من فنّاني العرب والعالم لتلوين جدران المدينة، وإقامة العروض المسرحيّة في الهواء الطَّلق، وعقْد المنتديات في الحصون الاستعمارية القديمة. دُهِشَ أهل «أصيلة» حين مشاهدتهم المنظرَ الجديد لبيوتهم، ثم تفاعلوا مع العروض الثقافية في السّاحة الرئيسة، وصار مشهداً يومياً اعتيادياً مرور امرأة بزيّها المحليّ المحافظ أمام لوحة تجريديّة على جدار، أو وقوف طفلٍ متأمّل يمنعه فضوله من خربشة اللوحة. امتزجَت الألوان واللغات والوجوه والأزياء الغريبة مع نماذج المدينة البشَريّة، ثم انكسرَت القشرة عن كائن بحريّ شبَّ مع سكّان المدينة على عادات مواسمها السّنويّة.

اتّسعت أعمال «أصيلة» وحاز تحديثُ عمرانها جائزةَ الآغا خان للعمارة الإسلامية، ونشأت في أحضان المحيط المغربي المحدود منتدياتُ الحوار الإفريقي-الإسباني-الجنوب أمريكي. ومن هذه المنتديات التي حضَرَتْها شخصياتٌ عالمية وُلِدَت (جامعة المعتمد ين عباد) برئاسة الروائي الإسباني أنطونيو جالا وعزيزة بناني (وزيرة الثقافة لاحقاً) ثم أضيف إليها قصرٌ للثقافة ومكتبة عامّة، وجوائز أدبية

كجائزة محمد زفزاف للرواية، وملتقى سينمائيّ، وحدائق مسمّاة بأسماء أدباء وشعراء، كحديقة المفكّر المغربيّ الحبابي والشاعر الكونغولي أوتاماسي.

رَسَخَت فكرة «أصيلة» بفضل انفتاحها على ثقافات المحيط الأطلسي ـ وفنون العالم البصَرية، وتآلفها مع تقاليد الثقافة الشعبية المغربيّة. يقول ابن عيسى: «لا يمكن لمكان أن ينهض بشخص، أو بأشخاص يعيشون خارجه. لابدّ أن تكون واحداً من الناس، هؤلاء يكونون جزءاً منك، ويقدِّرون أو يرفضون ما تقوم به، ولكنّهم معك. يجب أن تُحسّ بأحاسيسهم ومتطلّباتهم، يجب أن تساعدهم. كلّ هذه الأشياء تدخل في مشروع أصيلة الثقافي».

سيمضي مشروع «أصيلة» قُدُماً، تتبعه مشاريعُ عربية مماثلة، مثل لقاءات قرطاج وجرش والقرين، ثم يأتي «المربد» العراقي متطلّعاً من فسحة بين كثيبينِ صحراويّينِ، وسُوقينِ سنويتين للشِّعر، إزاء ما تطلّعت منه مواسمُ العرب الحديثة وسط القلاع وبمواجهة البحر. ولا أريد أن أذكّر بمناقب هذين الموقعين: الصحراء والبحر؛ إلا أنّني أرى المكوث على تقليد واحد، غير قابل للتغيير والتنويع والتحديث، سيغمر ذلك التقليد ـ مجموعة التقاليد ـ برملِها الزاحف كشبح غير منظور، مثله مثل الحروب، أو أشدّ مضاضة: الجمود والرتابة وتحديد القول.

٧/ ٥/ ٢٠٠٩

البصرة ـ العاصمة

تتوالى النوايا السّمحاء على أبواب البصرة في كلّ عام، وتأتي الآن من اليونسكو في اختيار البصرة عاصمةً للثقافة العربية العام ٢٠١٨. فكأن الانتقال الاحتفاليّ من العاصمة بغداد إلى عاصمة فرعية تحليقٌ في فضاء مناطق شاسعة لا تحظى بنظرة متأمّلة لمساحاتها، ولا بسفرة طويلة تخترق المشقّات على أديمها، بل لا يُتاح لها إشهار تاريخٍ يتململ من ركوده في كتُبها وآثارها القديمة، وإخراجه طوعاً للوجود والمعاصرة.

سيتيح هذا الاختيار الثقافيّ الحفرَ البعيد في بواطن الشخصيّة البَصْريّة، التي شغلَت العالم خلال قرون ماضية في مختلف العلوم والمعارف. إنّه حَفْرٌ مزدوج في السيكولوجيا والسوسيولوجيا، حتى المدى الأبعد من الخصائص الإنسانية النادرة. وتكفي الإشارة بهذا الصدد إلى عالم الكيمياء جابر بن حيّان، وواضع علم العروض الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأديب الحكايات الساخرة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كي تتجلّى الحقيقة الفلسفية والأدبية، التي تغلّف المدينةَ الهادئة بكواكب من نور ونار؛ وتزرع في الروح الفردية حبَّ الاجتماع والانفتاح على الحداثة والتغيير.

تمتدّ المناطق التاريخية حول العاصمتين ـ المركزيّة والفرعيّة ـ شمالاً وجنوباً، يغطّي طبيعتَها الهادئة الجميلة ستارٌ من السكون والإهمال، فكأنّما وجودها الطبيعيّ والثقافيّ يشير لمخطّطي المستقبل وهواة السّفر، كي يبدأوا دورةً من البحث والاكتشاف،

والبُرء من داء المكوث في المكاتب، الذي ابتُلِيت به النُّخَب العراقية طيلة عقود من تحوّلات المناخ السياسي. ولولا محاولات ميدانيّة قليلة جديرة بالاعتبار، كمحاولة الدكتور شاكر مصطفى سليم للإقامة في منطقة (الجبايش) والبحث في أنثروبولوجيتها الغزيرة بالكنوز المعرفيّة والجماليّة، لعدمنا الأمل في تأليف كتابٍ مثل كتابه، يصبح موئلاً مقارَناً للسّفر الداخلي والإقامة في مُدُن عذراء كالشَّطرة وعلي الغربيّ والسّماوة وسنجار والزبير والقُرنة والفاو، وغيرها من مُدن الذاكرة المرميّة وراء الأفق الأدخن لعاصمة النُّخبة الكسلى.

إنّ فكرة تعاضد التاريخ والاقتصاد والثقافة لإنشاء مواقع جديدة للإنتاج خارج العاصمة المركزيّة، تقوم أساساً على عمليّة تفكيك التضخّم الأيديولوجيّ للحاكمين، وتوزيع الميراث الرأسماليّ لاقتصاد العاصمة على الفراغات الأنثروبولوجيّة والإثنولوجيّة العاطلة من الإنتاج الثقافيّ والاقتصاديّ في مختلف أنحاء البلاد. غير أنّ هذه الفكرة صارت تدفع مثقّفي العراق لتخطيط محطّات إنتاج ثقافيّ، ومراكز بحث ميدانيّ، واستراحات سفر عند ملتقيات الأنهار وفي وديان الجبال؛ كما يمهِّد خيالُهم المتعَب من مفاجآت الحكم السياسي والتشرذم الأيديولوجيّ، وتبدُّد الرأسمال الوطنيّ في حروب متلاحقة، لتصوّرات مستقبليّة جديدة. وهم حين يُرخون الخيالَ لخططهم، ليأخذهم العجب من اتساع مساحة البلاد التي تراجعت أنوارها إلى داخل الأسوار، وتعطّلت رحلات أبنائها البعيدة، فاستبدّ بلُغتهم الوحيدة الكسلُ، وثقافتهم الوئيدة العَنَتُ؛ وكَسَدَ خيالُهم عن تحرير مشروعهم الوثّاب في قراطيس مقروءة خارج بقعتهم المنكمشة.

من جهة ثانية، قلّما سمعنا من داخل أفقنا المحدود ببعثاتٍ بعيدة المنأى، يحمل فيها رجالُ النّخبة المرموقون رسائلَ تفاهم وحوار ووئام إلى أهرام الحُكم في الدول

المجاورة للعراق، التي تَسبَّبَ «سحرُها» التآمريّ الأسود في تـدمير الـرّوح العراقيـة المسالمة؛ ولم يعمل أولئك المشهورون بألقابهم الجامعيّة وشـهاداتهم العلميـة الكبـيرة ومزاياهم السياسية المتنفّذة (وعددهم كبير في العراق) علىٰ إيصـال صـوت الـرأي العام الخافت إلىٰ ساحات الرأي العام العالميّ، من أجل كسب تضـامنه وزرع بـذور التقارب والتعايش السّلمي بـين الأطـراف المتحاربـة علىٰ حـدودٍ جغرافيـة وهميّـة ومطامع إقليمية زائلة؛ بل انطوىٰ كلُّ نخبويٍّ في موقعه ورُكنه، أو طلبَ السـلامة في الهجرة إلىٰ بلاد أخرىٰ. بينما واصل هذا السـعي الإيجـابيّ دعـاةُ سـلامٍ ورجـالُ رأي وأدباء عالميّون معروفون بيقظة ضمائرهم ونشاط سفراتهم إلىٰ العراق... وأخيراً جاء اقتراح اليونسكو بتوسـيم البصرـة شرف اختيارهـا عاصـمة للثقافـة العربيـة العـام ٢٠١٨، أملاً مدراراً بالعطاء الماديّ والفكريّ، واستمراراً ليقظة الطلائع الثقافيّـة في الكشف والسفر الطويل في التاريخ والطبيعة واللغة.

لا أحسبُ الفضاءَ المدنيّ للعاصمتين الكُبْرَيَيْن (بغداد والبصرة) يصلح في الوقت الراهن لانطلاق بعثاتٍ داخليّـة وخارجيّـة لتمثيـل مصـالح الـرأي العـام الثقافيّـة والاقتصاديّة، أو إخراج الدفين الحضاريّ من مواقعه المحصورة، مـا لم تُلـغِ النّخبـة المتمركزة في أركانها الصُمّ عطلتَها الطويلة، وتخرج إلىٰ فضـاءات المُـدُن المقطوعـة في «طابوات» الحُكم والثقافة والثروات الطبيعيّة. في كلّ جزء من المساحة الطبوغرافيّـة والديمغرافيّة، هناك نظرةٌ طبيعيّة_ فوق تاريخيّة، فاحصة، تتقاطع مع مجهوليّـة البُقَـعَ الجغرافيّة المترامية، وتستدلّ علىٰ كنوزها بحدّة ونفاذ بصيرة. وهنـاك وجـود راسـخ للإنسان الرافدينيّ ينبغي علىٰ مخطّطي المُدُن الجديدة احتسابَه وتقديرَه. وفوق هـذين الاحتمالين، فلمُكتشِف الأمكنة_ مصـوِّرها الأدبيّ والثقـافيّ_ ولـعٌ شـديد بعلاماتهـا الأنثروبولوجيّة والجماليّة، قد يمتدّ بعيداً في الواقع والخيال.

وقد ينهض_ أبعد من تلك الاستدلالات المعرفيّة والجماليّة اللصيقة بصورة البلاد_ افتراضٌ يتلخّص في البحث عن أمكنة نائية، أو بقعة صغيرة لم يُؤشَّر اسمها على خارطة السّفر والإقامة، ينطلق منها الاحتفال_ رمزياً_ بعاصمة الثقافة. لِيَسُق الكاتبُ العراقي عربتَه أو يقُدْ حمارَه، كما فعل (جون شتاينبك) عندما قرّر اكتشاف أرجاء الولايات الأميركية الشاسعة بصحبة كلبه؛ ثم لينظُرْ كاتبُنا حوله ويكتسبْ هوّية المواطنة بكتابة تقرير طويل عن رحلته، كما اكتسبَها كُتّاب عالميّون آخرون في أعمال روائية. وهكذا، فلو عدنا ثانية_ نحن الكتّاب العراقيّين_ بعد هذه الرحلة الاستكشافيّة الطويلة إلى عاصمتنا، فقد نضع ما جنيناه من مشاهدات السّفر في رسائل وتقارير وكتُب وألبومات صُور وخرائط، جنباً إلى جنب مع الحقيقة الطبيعيّة للبلاد، كما فعل الكاتب الإيطاليّ دينو بوزاتي في إحدى قصصه بعنوان (الرسُل السبعة).

أمّا أنت، أيها الكاتب العراقيّ المهاجر، يا من أتقنتَ دورَك الجديد «اللاجئ الأبدي»، تُشهِره على مسرح الآفاق الضائعة كلّما كَلَّ مَتناكَ من حمل سفارتِك: حُطَّ رحلَك قليلاً في ذكرى موقع تنّورٍ مضطرم على حافّة الأهوار، وتابعْ قارباً ينأى في عمق المياه، وتذكّرْ شارعاً منسيّاً في عاصمة الماضي، ثم امضِ حيثما شئت.

عواصم مفتوحة

أشرتُ في مقالتين سابقتين إلى جدَل المُدُن العربيّة، قارنتُ فيها (البصرة) بأهمّ مدينتيّن عربيّتيّن، حملتا هويةَ التاريخ الأصليّ القديم، وسِمات الثقافة الاستعماريّة المكتسبَة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين (الإسكندرية وأصيلة)؛ وناقشتُ فيهما فرضية اشتراك الخصائص الثقافيّة بينها، وانتقالها على نطاق أوسع بتأثير من عولمة ما بعد الاستعمار، والتغيير الديناميكيّ لبنياتها الاجتماعيّة والاقتصاديّة. وأشعرُ الآن بضرورة استئناف مناقشة تلك الفرضية، وإضافة رأي جديد عليها، في مقتبل اختيار البصرة عاصمة للثقافة العربية.

أحتاجُ أولاً إلى تأصيل الإطار المرجعيّ لفكرة ارتحال الثقافة، بالإشارة إلى أنواع المُدُن الثقافيّة التي ستقاسِم العالمَ المتحضّر رُقيَّه الثقافيّ، من غير أن تقع تحت هيمنة سلطته الرمزيّة على ثقافتها الوطنيّة ومسْخ هويّتها التاريخيّة.

تُصنَّف المُدُن الثقافيّة العربيّة في ثلاثة أصناف من الخصائص المشتركة:

- خصائص تاريخيّة (قديمة).
- خصائص جغرافيّة (طبيعيّة).
- خصائص مكتسَبة (مستحدَثة).

إنّ هذا التصنيف يستند إلى نماذج عالميّة وعربيّة تتمثّل في:

- المدُن الميتروبوليتانيّة (القاهرة، بغداد، الرياض).

- المُدُن الكوزموبوليتانيّة (الإسكندريّة، دبيّ، طنجة).

- المدُن المستحدَثة (المدُن المؤسَّسة على مخطّطات معماريّة يوتوبيّة).

إنّ المخطّط الأصليّ لهذا التصنيف يرجع إلى نظرية أفلاطون عن (الجمهورية)، والفارابيّ عن (المدُن الفاضلة)، وتوماس مور عن (اليوتوبيات)، وفوكو عن (المدُن البديلة)، لكنّه في فرضيتنا هنا يستند بدرجة أساسية إلى فكرة الروائيّ الهنديّ الأصل «سلمان رشدي» القائلة: «أيُّ مكانٍ في العالم مرآةٌ لأيّ مكانٍ آخر». وأنموذج ذلك مدينة «كشمير» المحايدة بين الهند وباكستان.

ومن جهتنا فإنّ جدليّة الأمكنة فكرة تستند إلى خصوصيّتنا في توأمة الأماكن العالميّة والأماكن المحلّية، بالكيفيّة التي تعرض أنموذج سلمان رشدي في أكثر من وجه: «أيُّ مكانٍ قديم مرآةٌ لمكان حديث» أو «أيُّ مكانٍ مغلَق مرآةٌ لمكان مفتوح» أو «أيُّ مكانٍ مركزيّ كبير مرآةٌ لمكان طرفيّ صغير».

يمنحنا هذا التكييف نظرةً تفكيكيّة للمفهوم القديم عن العواصم «الكابيتوليّة» المسيطِرة بِكُناها الرمزيّة: «أمّ الدنيا» و«عاصمة النور» و«مدينة المُدُن» و«دُرّة الخليج».. ويمكّننا من استبدال فكرة الأمكنة المفتوحة على رياح التغيير والتمدين والجدَل العولميّ بفكرة الأمكنة المغلَقة على طبيعتها التاريخيّة الأصيلة. كما يساعدنا الاستبدالُ المكانيّ (الطرفيّ والطبيعيّ) على تجديد الأدوار الافتراضية لمُدُن الثقافة، ويقترح النماذجَ البؤريّة الآتية لها:

- المُدُن الممثّلة للثقافات المحلّية والوطنية.

- المُدُن الجاذبة للثقافات المهاجِرة.

- المدُن الموائمة لأيّ مدينة ثقافية مستحدَثة في العالم.

لا أعجبُ أن يتحمّس المهندّسون المعماريّون ومخطّطو المدُن العرب، المنتشرـون في بقاع العالم، لزرع الأنموذج الجدليّ لمدينةٍ ثقافيّة عربيّـة في رحـم الطبيعـة الخصـيب، تقوم باقتسام الفعاليّات الثقافيّة مع المراكز السياسـيّة والاقتصـاديّة لعواصـم العـالم الكبيرة، ويكون على رأس أدوارها:

- إيقاظُ الذاكرات الثقافيّة والتاريخيّة الخاملة في الحاضنات القديمة.
- تفعيلُ الجدَل الأساسيّ بين الثقافة الوطنيّة والعالميّة.
- استحداثُ قواعد ومحطّات إبداعيّة للعمل الثقافيّ الحرّ.

تنطـوي الأدوار الجديـدة لمُـدُن الثقافـة، المفتوحـة لريـاح التغيـير الـديمغرافيّ والاستيطانيّ، على أحلام مستقبليّة طالَ احتباسها في أذهان المثقّفين والأدباء العرب، وهم يتطلّعون إلى أن يجتمعوا في لحظة جدليّة قادمة في محطّة/ عاصمة مفترَضة، تتيح لهم التفرّغ لعملهم الحرّ في وسط الطبيعة المهيأة لهذا الغرض؛ ولا تقيّـدهم بماضـيها المتجمِّد عند لحظةٍ طالَ ركودها وتصحُّرها.

إنّ النماذج الثقافيّة المشار إليه آنفاً قـد تنعطـف نحـو أطـراف جغرافيّـة داخليّـة وخارجيّة، فتضمّ طبائعَها الأصلية إلى خصائص طبيعتها المكتسَبة، وتواصلُ تطوّرها بذاتها الديناميكيّة. وأفكّر هنا في ما تستطيع البصرة (باختيار اليونسكو لهـا عاصـمة ثقافية للعام ٢٠١٨) اكتسابَه من خصـائص فطريـة، كامنـة في طبيعـة مـدنٍ عراقيـة طَرَفيّة، لكي تتمثّلها في تمركزِها الثقافي المدينيّ المسـتقبليّ (مـدُن مثـل: عـلي الغـربي، سوق الشيوخ، الرُّميثة، الحسينيّة، المهناويّة، الصويرة، سامراء، بهرز، الطوز، سنجار، شقلاوة).

سيسمح هذا التداخل الثقافي-الطبيعيّ بِصُنع جَدَلٍ يوازي في أهميّته جدَل العواصم الثقافية العربية المميَّزة بهويّاتها الأصلية (القاهرة، بغداد، دمشق، القدس، عمّان، فاس، مراكش، القيروان، نواكشوط، صنعاء) وجدلٍ مقابل للمدُن الكوزموبوليتانيّة العالميّة، والمدُن المفترَضة في عالم تتغيّر جغرافيّته الأرضية كلّ يوم.

إنّه آخر حلٍّ تستطيع مدُنُنا الكئيبة أن تفتح بوساطته أبوابَها الثقيلة على فضاءٍ رحب من الابتكارات الثقافية، وتجدّد أصولَها المتحجّرة باقتراباتٍ جريئة من نماذج متنوّعة في العمارة والفنّ والفكر العمليّ اليوميّ، لكنْ بما تقترحه بنيتُها المتأصِّلة من انفتاح على:

- الرساميل الوطنيّة والعالميّة للاستثمار فيها.
- فتح الحدود لامتزاج الأجساد والأرواح والألسُن المختلفة.
- التسامي على فكرة الزمن والأيديولوجيا وخرائط التقسيم والاستغلال الإنساني والمادي.

٢٠/ ٤/ ٢٠١٢

خافق معلّق فوق موقع قديم

اختارت اليونسكو البصرةَ عاصمةً للثقافة العربية في العام ٢٠١٨، وكانت المدينة قد اختارتها وزارة الثقافة في العام ٢٠٠٩ عاصمة للثقافة العراقية. ويُخشى أن يمضي الاختيار الثقافي اللاحق كمثيله السابق، ويُطوى سجّل المدينة العريقة على بُقع الإخفاق التي أُخفِيت بخفوت الضوء الذي فُتِحت به صفحاته.

كيف نفرش النورَ، ونمدّ النظرَ، كي ننال قبَساً من تجارب مدُنٍ عالمية مثل أفينيون والبندقية وفرانكفورت وأصيلة والإسكندرية وأبو ظبي وغيرها من عواصم النّور، جدَّدت روحَها المدنيّ بإحياء بنيانها الثقافيّ الذي عُرِفت به على مرّ السنين واختلاف العصور وتبدّل النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية؟ كيف يخترق النورُ بنيانَ التخلّف ويبني لمساره سُبُلاً بعيدة عن الفساد والخوف والإحباط؟

إنّ اتصال مفهوم المدينة الثقافيّة بالموقع المتقدّم لعمل الثقافة، وارتباط عمل المثقّف بعمليات تنمية المجتمع وتقدّمه الحضاريّ والإنسانيّ، وسموّ المعنى الثقافيّ على اتفاقيات المراحل الطارئة واصطلاحات المواثيق النفعيّة، يدفعنا إلى رؤية مشروع عواصم الثقافة على أساس اعتبارينِ متضادّين، يتربّص أحدهما بالآخر ويُغلِق السّجلّ دونه على مضض وإكراه:

الأول: اعتبار المشروع واجباً روتينيّاً لصرف الانتباه عن الانحدار الثقافي العام للمُدُن القديمة.

الثاني: اعتبار المشروع واجباً إحيائياً دوليّاً للصعود بالثقافة إلى قمّة الفعل الحضاري المجدِّد لروح المدُن القديمة الموشكة على الاندثار، والبصرة أوّل أمثلتها.

كِلا الاعتبارين ينبع من النظرة المتردِّدة لصفحة يوشك النور أن يغمرها، فيكشف عن صعوبة تنفيذ وصاياها المعلَنة بوضوح. علينا أن نختار أحد الاعتبارين من داخل الموقع الذي لا نختلف على حدوده وأبعاده في الوقت الراهن، في ظرف لا نختلف على صعوبته كذلك.

يتاخم الواجبُ الرسميّ العراقي الواجبَ الإحيائيّ العالميّ، كما يتاخم الموقعُ القديم موقعَ الثقافة الجديد ويزاحمه على سلطته، ولا سبيل للعامل الثقافيّ إلا أن يدحر تردّده ويشحذ أدواته من أجل الحفر والبناء، التقدّم والتقدّم ثانيةً نحو الحصون القديمة وتجديد روحها المتصخِّرة؛ ودون ذلك مصاعبُ ليس أقلّها شفاء أمراض التعصّب والتطرّف والإرهاب، وإزالة ملوّثات البيئة الثقافيّة والمدنيّة، وليس أعظمها بناء قاعدةٍ للنموّ الثقافيّ السليم وتحديث أطُرِها الاجتماعيّة. وليس رأي الشجعان في الموقع المتسلِّط وحده ينفع في قهر هذه المصاعب، إنّما تشجيع الرأي المحكوم بالخوف لكي ينهض من كبوته ويتسلّق درجات خوفهِ وأزماتهِ كذلك.

لا بدّ من العمل في إطار الموقع اللاهب بحرارته، المخنوق بأزماته، ولا بد من تناقل أدوار سلطته الرمزية وصلاحيات حُكمهِ الدوريّة. إنّ أعواماً من حكم العاصمة المركزية الثقافيّ، المتاخم لحكمِها السياسيّ، يستوجب نقل صلاحيّات الأفكار من مناخ إلى مناخ، وتنفيذها على مستوى آخر معروف بخصوبته الفكريّة والتاريخيّة. وقد لا يكفي عام واحد لتحكيم الموقع الثقافيّ، فالبصرة مدينةُ الفصول

والأعوام والأفكار، مدينةُ الطبقات المتناسخة والأعمار المتناقلة، يتطلّب عقلُها الثقافي حُكماً أطول من حُكم المؤسّسات السياسيّة والثقافيّة الشائخة ونواياها.

بحُكم هذا الاعتبار الثقافيّ الأساسيّ، المتاخم لموقع الاعتبار السياسيّ العابر، نقترح ما يلي لنقل الانطباع الموسميّ إلى حقيقة تأسيسيّة:

- إحياء البنية الثقافية الأصلية للمدينة، وتخطيط موقع جديد لها يجاور الموقع القديم، وإضفاء الصفة الفكريّة والجماليّة على الجزء المستحدَث منها.

- نقل صلاحيّات مؤسّسات العاصمة المركزيّة الثقافيّة (مؤسّسات الثقافة والآثار والسياحة) لتحكُمَ من الموقع الثقافيّ المستحدَث، وإعطائها صلاحيّات المجلس أو البرلمان الثقافيّ.

- استحداث أكاديمية الآداب الوريثة لمدارس الفكر واللغة والأدب القديمة، باعتبارها البديل الأرقى لما يُعرَف اليوم بجامعة البصرة المقتصرة على تدريس المناهج المدرسيّة التقليديّة.

- استحداث النظير المؤسّسيَ لبيوت الحكمة، ودُور النشر، والمكتبات، التي عُرِفت بها المدُن الإسلاميّة القديمة.

- ربط البيئة الثقافيّة للمدينة ببيئات المُدن العربيّة والعالميّة المحيطة.

- تخصيص العمل الثقافي، واستثمار رؤوس الأموال في سوق المدينة الثقافيّة، بتأسيس صندوق للتنمية الثقافيّة، وعقد المواثيق المنظمة للعمل الثقافيّ المرسَل.

- تشريع العمل في الموقع الثقافيّ على قاعدة: إنّ الخطط المثاليّة ليست أكثر من تخطيطات مطروحة على طاولات النقاش، وإنّ العواصم الجديدة ليست أقلّ حجماً من فكرة سوفسطائيّة تداولتها مجالسُ الفكر في المدُن القديمة، من قبل.

انطلاقاً من الفقرة الأخيرة، سيتمكّن جناح المواطن في المدُن الجديدة من أن يرتفع بقوادم الخيال إلى أرقى درجات الموقع الثقافيّ المستحدَث، قبل أن تحطَّ به خوافيه إلى صليل الأرض القديمة وصَلصالها. وليتني أتحكّم بجناحي فأمنعه من تتبّع طريق (ديدالوس) مهندّس المتاهات، ووَلدِه (إيكاروس) طائر المستحيلات. ليت خافقي لا يمنعه أنينُ الأرض السّفلى من التحليق بعقل جموح. وليتني وُلِدَتُ، من جديد، في بيئة المستحدَثات العقلية، ونشأتُ على شقاء المحكومين بفلاحة البساتين فأشتقُّ من عملهم عمل (الثقافة) الدقيق في معناه ومرماه.

لا تستدعي مواطنة مدُن المستقبل اصطناع أخلاقيات مقطوعة عن ماضيها التاريخيّ والثقافيّ، بقدر ما تحتاج المواطنة تكييف تلك الأخلاقيات «الأصولية» لحركة الموقع في تكوكبه المستقبليّ، الحقيقي أو المفروض في شكل معماري مختلف عن الماضي. ونعني بهذا التكييف: ملاءمة التفكير-العقلي والأدبي لنوع من الحداثة الكوكبية التي تقطع مع الركود العقائدي والاستسلام التاريخي.

نيسان ٢٠١٧

المربد وجدَل الأمكنة

انفضّت الدورة الرابعة لمهرجان المربد الشعريّ، المنعقدة في البصرة مطلع شهر حزيران ٢٠٠٦، لتنتهي بانتهائها هجرةٌ أخرى من هجرات الوادي القديم الذي كان سوقاً جرداء تكسوه الحجارة البيضاء الرَّخوة، وصارت سوقاً لمنتوجات البادية ومواسم التُّمور، ومنبراً للشِّعر والخطابة، ومحلّةً تزدان بالقصور ودُور النّزهة والاستجمام، ثم مقبرة للأولياء والصّالحين.

دار الزمان على الوادي فعاد موقعاً، يُرسِل كلَّ عام ميراثَه الرمزيّ القديم، لينتصب وراء منصّات الشِّعر، ويبثّ رسائلَ التواصل مع دورات أمكنتِه المتوالية.

كان السِّباخ والقصَب والحجَر الأبيض ورياحُ البحر ميراثَ البصرة الطبيعيّ، حتى أوفدَ الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب بضعَ مئاتٍ من المُقاتِلة مع عيالهم ليعمروا أرضَ (الخريبة) هذه، ويشقّوا أنهارَها ويغرسوا نخلَها ويمدّوا سِككَها ويخطّطوا الأخماسَ لقبائلها، فكانت خطّة المربد واحدة من الخطط الخمس التي تحوّلت إلى سوقٍ لإنشاد الشعر ومحاورات النحو ورواية الحديث والأخبار، جذبَت إليها قبائلَ الحجاز والخليج لتستوطنها، وتُطلِق في أرجائها روحَ القوافي المجنَّحة بالموسيقى، وصُوَر الغيلان وأخيلة الشَّراب وأحاديث السَّفر والصعلكة.

على واحدة من خطط البصرة المتناسخة، تُقام دورة المربد سنوياً، تحت قُبّةٍ ثمانية الأضلاع، تتدلّى من مركزها الشاهق ثُريّا مرصَّعة بفصوصٍ مثل نجوم تهدي قوافل

الصحراء المهاجرة إلى موطن جديد، يتضافر فيه رأسمالُ الشِّعر ورأسمالُ النفط، وتسيل من مضخِّمات الصوت في جنبات مسرحِهِ أغاني البحر وإيقاعاتها الراقصة، فكأنّ هذا الميراث المتحوِّل من الوادي إلى القُبّة، ومن البحر إلى المسرح، محمولٌ على سِكَكٍ تجرف الشعراءَ المقذوفين في الآفاق، وتُعيد ما انطوى من ضجيج القوافي المتقافِزة مثل الظّباء في البريّة.

تقدّمَ المربدُ أربعةَ فراسخ من موقعه القديم، واقتربَ من شاطئ النهر، كي يجرِّب هجرةً أبعد، سالكاً سِكَكَ الثقافات المهاجِرة منذ قيام بيت الحكمة والمارستان العضديّ والمدرسة النظاميّة في حاضرة العاصمة العباسية، ومواصلاً جدلَ اليوتوبيا والخراب، ثم ناقلاً معه الشِّعرَ في غير مكانٍ ثابت. ارتحَلَ الشِّعر إلى المسرح عازماً أن يحمل من باطن الوادي القديم ضجيجَ الوجوه المتزاحمة على المنبر، ولهجات القبائل المتناحرة لاعتلائه، وصُور الذكرى البدويّة الملتقَطة بكاميرات الدِّيجتال.

يعتمل جدلُ المربد بعوامل الشِّعر نفسها: الأطلال واليوتوبيا والهجرة. فما أن يتمالك الشاعر صوابَه من هول الخراب حتى يشدّ الرّحال بعيداً عن مواطن الصِّبا والشباب، سالكاً واحدة من سُبُل الفرار التي حملَت مطاريدَ السلطة وخلعاءها عبر المفاوز والقفار. كان مالك بن الريب قاطعاً للطريق بين البصرة ومكّة، انتهى ملدوغاً في خراسان. وطاردَ زيادُ الفرزدقَ من البصرة إلى المدينة. وخرج المتنبي مع قرامطة السّماوة، فسُجِن في حمص، ثم تنقّلَ بين حلب ومصر وشيراز، حتى لقِيَ حتفَه بسيف فاتك على طريق عودته إلى بغداد.

وبعد هؤلاء همزَ جَدَلُ الهجرة ظعائنَ الشِّعر العراقي الكلاسيكيّ والحديث، فأدلجتّ في طُرق اليوتوبيّات الضائعة، حتى تقطَّعَت حبالُ الحنين بالكاظميّ

والنجفيّ والجواهريّ وبلند الحيدريّ والسياب والبياتيّ ويوسف الصائغ وسعدي يوسف، ولمّا يبلغوا حلمَ العودة إلى أوطانهم. كانت هذه هجرة في درب دائريّ مغلَق، بين نوءٍ طالع ونوءٍ غارب، قبل أن تبدأ الهجرة الثانية لشعراء التجديد والحداثة على الطريق المفتوحة نفسها مثل سهمٍ بلا عودة، أخذ ينطلق أمام الأنواء حتى أقصى الحلم الضائع.

وهنا بلغَ الجدَلُ غايتَه في هدم سلطة المكان واستبداد الخراب بإرث اليوتوبيا المبعثَر، واشتغلَ جَدَلُ قصائد (شعب بوان) و (الطبْسَين) و(الدّيارات) في تحريك جَدَل قصائد (غريب على الخليج) و(عبور الوادي الكبير) و(بستان عائشة) وقصائد التغريبة العراقيّة الواسعة. وما زال حلم نازك الملائكة المغلول بغيبوبتها، يحدو بالهوادج شرقاً وغرباً، حتى تصعد إلى أعلى السماوات.

تضافرَ جَدَلُ الشِّعر العراقي في جدائل تتراقص في مهبّ «الرياح التاريخية» وهيكل الأرواح المتراسِلة، على أنقاض اليوتوبيا المربديّة وأحلامها الهائمة بين وحشة الصحراء ومسارح المدُن. أصبحت القصائد متوّجة بأكاليل «الأزهار الذابلة»، بانتظار أن تُبحِر بها السفائنُ عن الشواطئ المُلَغَّمة. اجتمعَ الحاضرُ والماضي، الحياةُ والموت، البدايةُ والنهاية، الاعترافُ والصمت؛ هنا التقى بشّار وأبو نؤاس مع ندمائهم. لكنّ المربد راحلٌ عن مكانه. ما عادت هذه السّوق تستأنس المكانَ المريح، إنّها تتطلّع إلى مكان آخر إنّها تتردد بين جنبات الأمكنة البديلة، الجَدَلِ الواسع بين نوءٍ طالع ونوءٍ غارب.

تنتظر المربدَ المغترِب مرابعُ طبيعيّة ساحرة، في أكثر من مكان عراقي: خلواتٌ منيعة في رؤوس الجبال، ضفافٌ رائعة الاخضرار عند منحنيات الأنهر، صوامعُ منعزلة في أطراف الصحراء_ أمكنةٌ مجدولة بيوتوبيا الشِّعر، تتآلف فيها أصداءُ

المقامات الحجازيّة والعراقيّة الصادحة بحنين الألفة وحرارة اللقاء، وتطويحات الغناء النهاونديّ والقورياتيّ المشبَّعة بخشوع الخلوات الصوفيّة، المُغرَقة بأحزان الوحدة والانقطاع.

تنتظر المربدَ أماكنُ وفصولٌ تُنقِذه من اغترابه وضياع أصواتِه. لكنّ المربد ينفر من أمكنته البديلة، تاركاً وراءه حنيناً لا يُمكن إشباعه. إنه هنا_ هناك، في أي صوت راجع_ صوت ذاهب. في جدل الأمكنة والأنواء_ الأنواء العراقيّة العجيبة.

المربد هنا، في وادي عبقر من نوع آخر، يستدعيه جدَلُ الصوت الهارب من موقع رفقةٍ تحلّقوا ناراً في خرابة دَيْر أو طللٍ على طريق المسافرين، تُطرِبهم أربعٌ وسبعون قينةٍ مبعوثة من مقبرة أور الملكيّة يتلاعبنَ بأوتار الطنابير. وقد يكون المربد هناك، تحت سماء ليلةٍ زنجيّة في صومعة أبي العلاء المعري، أو حول عسجدية أبي نؤاس، ينحبِسُ في مكانٍ ليس على خاطر، وفي أبياتٍ ليست للنسيان:

ودار ندامى عطّلوها وأدلجوا
بها أثرٌ منهم، جديدٌ ودارسُ

مساحبُ من جرّ الزّقاق على الثّرى
وأضغاثُ ريحانٍ، جنيٌّ ويابسُ

حبستُ بها صحبي، فجدّدتُ عهدَهم
وإنّي على أمثال تلك لحابسُ

أقمنا بها يوماً، ويومين بعده،
ويوماً له يومُ الترحّل خامسُ

١١/ ٤/ ٢٠٠٦

الطائرة والمطبعة

في ٢٥ آذار ١٩٣٧، افتتحَ الملك غازي مطارَ البصرة المدنيّ، بعد أربع سنوات من افتتاح مطار بغداد المدنيّ، وستّ سنوات من وصول أوّل رفٍّ من الطائرات الحربيّة إلى مطار الوشّاش. قادَ الطائرات خمسةُ طيّارين عراقيّين تدرّبوا في إنكلترا، وعادوا بطائراتهم الخمس من نوع (جبسي مَوث) أي (فم الغجريّ) عبر أجواء عددٍ من المدُن الأوربية والعربية حتى هبوطهم في الرمادي ثم انتقالهم إلى بغداد في ٢٢ نيسان ١٩٣١.

افتتَحت الرحلةُ الطويلة، لسِرب الطائرات البريطانية الصّنع، حقبةً من الحوادث الجويّة والأرضية المتزامنة مع خروج العراق من الانتداب البريطانيّ ودخوله عصبة الأمم في الثالث من حزيران ١٩٣٢، ووصول أمّ كلثوم في العام نفسه إلى بغداد على متن طائرةٍ حطّت في مطار الوشّاش، وكان في استقبالها الشاعر معروف الرصافيّ بصحبة مشاهير الأدب والفنّ والصحافة العراقيّين.

توفيَ الملك فيصل الأول في ٨ أيلول ١٩٣٣، وبعد ثلاثة أيام من وفاته تُوّج ابنُه غازي ملكاً على العراق. وهنا سجّلت عدسةُ المصوِّر الأهليّ عبد الرحمن لقطاتٍ أرضيةً متزامنة مع سنة التتويج وبعدها، كافتتاح سينما غازي، واختُتِمت الحقبةُ الملكية الوسطى القصيرة بوفاة الملك في ٤ نيسان ١٩٣٩ تزامناً مع افتتاح جسر الشهداء. غير أنّ اللحظة التزامنيّة الأكثر أهميّة في حوادث حقبة الثلاثينات الملكيّة كانت تلك التي سَجّلت نشوءَ صُحُفٍ وطنيّة معارضة (كالأهالي والإخاء الوطنيّ

والأخبار والرأي العام وحبزبوز) ودوران المطـابع الأهليّـة لطباعتهـا (كمطبعـة دار الشعب والأهالي والأعظميّ والتفيّض)، ومن هذه المطابع مطبعة (الأمّة) لصـاحبها يوسف هرمز، وقد انتقلت من البصرة إلى بغداد عام ١٩٣٥.

أدخلَـت الطبقـةُ الصـناعيّة طباعـةَ «الأوفسـت» إلى الـوِرَش القديمـة لمطـابع العاصمة، بعد الحرب العالميّة الثانية، وهنا في العاصمة الجنوبيّة قادت مطبعة (حدّاد) الناشئة عام ١٩٥٢ مجموعةَ المطابع التجاريّة العاملـة بطريقـة صـفّ الحـروف (لَـتَر بريس) وأنتجتْ لصاحبها وحدَه عدداً من المؤلفات الأدبيّة، تبعتْها مطبعة (الأديب) فأظهرتْ كتاب (مختـارات مـن الأدب البصريـيّ الحـديث) أولّ انطولوجيـا لأدبـاء البصرة عام ١٩٥٦، قبل أن تدفعهم حداثتُهم إلى الهجرة من زقاق المطابع الصغيرة.

كان بإمكان طائرة بريدٍ أن تنقل أخبار الانقلابات العسكريّة إلى ما وراء الحـدود، كما كان بإمكان ذراع مطبعةٍ من نوع (هايدلبرغ) أو (مرسيدس) الألمانيّـة الصـنع أن تضغط الحروف وتطبعهـا ثـم تُرسِـلها إلى أنطولوجيّـات العـالم. نشـأت المطـاراتُ بموازاة نشأة المطابع، تزامنت النظرةُ العموديّة والحرفُ المحفور عـلى سـطح الزنـك والقصدير، وتراسلا ببشارة مزدوجة، وأعلنا عن وصـول خـبرٍ مـدوّ: وفـاة أربـاب الطباعة السُّريان تباعاً (يوسـف هرمـز وبـولص كـوكي ويوسـف حـداد) وتوقُّـف مطابعِهم مع تعاظُم هدير الطائرات الحربيّة فوقها.

كان الفخر بتحليق الطائرات في السماء، ودوران المطابع على الأرض، متساوياً في قوّته وسيطرته على الأسـواق المحيطـة بـالعراق. وبعـد أن جـرى تبـدّلٌ صـاعقٌ في الأجواء، وذَوَى إنتاجُ المطابع الحديثة، تحكّمَ مفهومُ «رفرفة الفراشة» العولميّ في نسَق السّوقِ الثقافيّة العراقيّة؛ وما عادت تـؤثّر في دورة التـاريخ العراقـيّ غـيرُ «رفرفـةٍ»

تزامنيّة واحدة، اقتصرَت على توافُق الكساد الاقتصاديّ العالميّ في ثلاثينيّات القرن الماضي، مع عَقْد صفقات السّلاح لإنقاذ السّوق الرأسماليّة من الإفلاس.

غيّرت الأزماتُ المتزامنة لأسواق المال نُظُمَ الإنتاج الثقافيّ لأسواق المنطقة، وحَرَمتْها من إجراء ترتيبٍ عادل لحاجات ضميرها الجمعيّ الفقير، فتقدّمت صفقاتُ السّلاح على صفقات التنمية الثقافيّة، حتى مرحلة ما بعد الاستقلال الوطنيّ، والتغيير الحاسم للنظام الدكتاتوريّ في ٢٠٠٣، إذ ستعزّز الصفقاتُ الضخمة (مثل صفقة الطائرات الحربيّة والدبّابات التي عقدتْها الحكومة العراقيّة مؤخراً مع الشركات الصناعيّة الأوربيّة والأميركيّة)، من الآن فصاعداً، مركزَ الإنتاج الرأسماليّ وتُنقِذه من أزماته الماليّة؛ فيما ستعاني حركةُ الطباعة والنشر في أسواق الحداثة الوطنيّة شحّةَ الرأسمال الثقافيّ اللازم لاستئناف عمل الأسلاف التنويريّين، من أربابِ الصُّحف والمطبوعات.

من الآن فصاعداً، ستتزامن «رفرفاتٌ» بديلة لتعويض اللحظة التزامنيّة الكبرى بين المطبعة والطائرة، بين صورة شارع الرشيد الغارق بمياه المطر عام ١٩٣٠ وشارع المتنبي الغارق بالكتب، بين أنطولوجيا البصرة للأدب الحديث وأنطولوجيا شعر محمود البريكان (متاهة الفراشة) الصادرة عن دار الجمل، بين دار نشرٍ حكومية ودار الطباعة الخياليّة في قصة (حكايات يوسف) المكتوبة بعد حرب الثمانينات. من الآن فصاعداً، سنُصغي بعمق إلى رفرفة فراشة تحوم في مقبرة الزبير «احتفاءً بالأشياء الزائلة» التي نثَرَها البريكانُ حول قبره:

«أجملُ ما في العالِم/ مشهدُه العابر/ ومباهجُه الصّغرى.

طوبى لكَ إنْ كنتَ بسيطَ القلب/ فستفهم مجدَ الأرض/

سحرَ الأشياء المألوفة/ إيقاعَ الدأب اليومي/

وجمالَ أواصر لا تبقى/ وسعادةَ ما هو زائل».

٢٠٠٩/٦/١٣

المكتبة الأهلية بالبصرة ـ الوجود المكتبيّ الأصغر(*)

أشعرُ كلّما خطَوتُ نحو (المكتبة الأهليّة) في موقعها الحاليّ بالبصرة القديمة، لشراء الصُّحف أو الكُتب، أنّني أقتربُ من البهوِ الواسع للوجودِ المكتبيّ الذي يحتلُّ قلبَ الرؤيا في أعمالي القصصية. لقد مات اثنانِ من بُناةِ هذا الوجود، الأب فيصل حمود وابنُه غازي فيصل، لكنّي أعامِلُ هذا المكان وأتصوَّرُهُ وجوداً حياً لا يبلى ولا يفنى، يشعّ باحتمالات سردية قديمة وجديدة.

هنا، في هذا البهو، سيظلُّ الحفيدُ ـ مصطفى غازي فيصل حمود ـ يستقبلُ روّادَ المكتبة ويقودُهم إلى قلب الواحة التي يتنفسّون في ظلالها هواءَ الكلماتِ النقيّ من الغبار والضوضاء. يسعى روّادُ اليوم إلى قلب النّسخةِ الصُّغرى من الوجود القديمِ الأكبر، ليستمدّوا منها أسبابَ البقاء والديمومة، منذ تأسيس المكتبة عام ١٩٢٨، في البُقعةِ نفسِها من بصرة الجاحظ، الكُتبيِّ الأكبر تغيّر موقعُ المكتبة مراراً، لكنها بقيَت متصلة بوثاق لذلك الوجود الكبير، غير المتزحزِح.

ينضمُّ الوجودُ المكتبيُّ إلى مجموعةِ البُنى الثقافيةِ والاجتماعيةِ والاقتصادية التي تمثلُها المؤسساتُ المدنية والأكاديمية والاقتصادية. وبعبارةٍ أخرى، فالوجودُ المكتبيُّ يتمظهَرُ في المجتمع المدنيّ المتحضِّر بالمنتوج الثقافيّ ويحتفي فيه؛ وهذا المنتوجُ الثقافيُّ

* كلمتي في حفل تأبين الراحل ـ غازي فيصل ـ صاحب المكتبة الأهلية في البصرة، المقام في قصر الثقافة والفنون بالبصرة، بتاريخ ٢/ ١٢/ ٢٠١٨.

في أرقى أشكالهِ يتمثّلُ بالكِتاب ومَن يرتبطُ به- مؤلفينَ وقرّاءٍ ومُسوّقِين؛ حيث تحتّل المكتبةُ بأنواعِها محورَ العلاقةِ بين المنتوجِ الثقافيّ والكائناتِ المكتبيّة التي تتداولُهُ، ابتداءً من مرحلة الإنتاج حتى مرحلةِ التسويق. ولا يُمكِنُ تصوّرُ وجودِ مكتبةٍ خارجَ هذه العلاقة التداوليّة، أو خارجَ هذا المجتمعِ المدنيّ، أو بمعزلٍ عن تلك الكائناتِ المكتبيّة، الساعيةِ بين المنتجِين الأساسيّين لهذا الوجود (القرّاءِ والكُتّاب والناشرين والمسوّقين أصحابِ المكتبات).

تجدرُ الإشارةُ أولاً إلى هويةِ المكتبةِ التي اتسعَ نشاطُها التجاريّ وارتقَت مرتبتُها (من توزيعُ الصُّحف وبيعُ الكتب إلى الاضطلاع بنشرٍ خاصّ لها تحت لوغو المكتبة). فقد استردّت المكتبة اسمَها القديم (المكتبة الأهليّة) بعد سلسلة تحولاتٍ سياسيّة وانتقالاتٍ مكانيّة، وصار اسمُها مِحوراً للدلالةِ على تقليدٍ أهليّ يوظّفُ المالَ في سوقٍ ثقافية تزدهرُ بطبع الكُتب ونشرِها وعرضِها في أكثر من مكان. ولعلَّ العودةَ إلى تلك التسميةِ القديمة، سيساعدُ أصدقاءَ المكتبة على إحياء ذكرياتِ زمانٍ كانت المكتبةُ خلالَهُ عنواناً لمجتمعٍ معرفيّ، محبٍّ لاقتناء الكتُب، مشجّعٍ لسوق الثقافة، وداعمٍ لدور البُناةِ المتنوّرين.

والآن، هل يُمكّنُنا الاقترابُ من مرتبة البُناةِ والرُّوادِ الأوائل، والاحتفاظ بمجموعاتٍ نادرة من الكتبِ المختومة بختم المكتبةِ الأهليّة، ثم بمجموعاتٍ حديثة أصبحتْ نواةَ مكتباتِنا الخاصة- هل يمكّننا ذلك كلّه من حيازة الشرف في اكتساب عضويةٍ- مهما كانت درجتها- لذلك الوجود المكتبيّ الأرقى؟ ثم هل يخوّلُنا هذا الانتساب حقّ استذكار ثلاثةَ أجيالٍ من بُناتِها، ونتخيّلُ الصورةَ المستقبليّة للمكتبة التي ستصبح مركزاً منيراً، وجزءاً أساسياً من تخطيط المدينة العصريّة، مدينة العلم والرفاهية والمعرفة؟

إذا كنّا قادرين على تخيّل هذا الوجودِ المكتبيّ، فلأنّنا نريدُ إعادةَ الصلةِ بالجيلِ المكتبيّ الأوّل، واعتزالِ جيلٍ ثانٍ من الكائنات (اللامكتبيّة) سبّبتْ دماراً شاملاً للبنيةِ الثقافيّة لوجودِنا، وأحرقَتْ عدداً هائلاً من المكتبات، كانت المكتبةُ الأهليّة واحدةً منها، أعني جيلَ الحروبِ والدكتاتوريّة (اللا مكتبيّ).

لن يضيرَ جيلَنا المكتبيَّ الحاضر أن ينتسبَ أفرادُه إلى الكائنات المكتبيةِ الخياليّة، فهذه هي وسيلتُهُ لتخطيطِ الرؤيا الجديدة في مدينةٍ مستقبليّة تحتلُّ مركزَها (دارٌ للطباعة) كتلك الدّار التي تخيلتُها في قصة (حكايات يوسف)، أو تقومُ في وسَطِها (دارٌ للمحفوظات) كتلك الدار التي أنشأتُها في قصة (صحيفة التساؤلات)، ولربما كنّا قادرينَ أيضاً على توصيلِ الرسائلِ المستقبليّة من أبراجٍ عالية، تحتوي كتابةَ الوجودِ الأكبر العصيّة على التفسير والتحليل.

أجل.. هذا هو عملُنا، العملُ المستقبليّ الوحيد، الذي صِرنا نبحثُ عن شفراته في كتابٍ مهمَل على رفٍّ قديم، مختومٍ بختم المكتبةِ الأهليّة. إنّه الكتابُ الذي يحمِلُ نُبوءةَ الكتُبِ القادمةِ كلِّها، وصورةَ المدُنِ المستقبلية التي نهفو إلى تخطيطِها في نصوصِنا الأدبيّة. وستحتلّ المكتبةُ الأهلية قلبَ هذا التخطيطِ المستقبليّ، كما تحتلُّ اليومَ قلبَ الوجودِ القديم.

مكتبة «الجمهورية»...بؤرة ومنار

يملك عبد القادر العيدانيّ مكتبتيّن، إحداهما منزليّة خاصّة، والأخرى تجاريّة عامّة. الأولى رافقت تطوّرات حياته وفكره، والثانية ربطَت وجودَه بحياة الآخرين في المجتمع المحلّي الذي نشأت المكتبة في أحضانه، فهي مقياس حياة كما أنّها مقياس نضال؛ بينما تظلّ المكتبة المنزليّة مقياسَ فكرٍ لا يتغيّر مؤشّرُه مهما تغيّرت الأحوال. هذه دلالة على وجود أصغر، وتلك دلالة على وجود أكبر، بحسب الموقع الذي تحتلّه كلّ مكتبة، والمقياس الموضوع في قلب الأحداث.

كنا من عائلتيّنِ متجاورتينِ، تسكنان المحلّة الشعبية المعروفة بتنوّع السكّان، ذات الاسم العثماني (منّاوي باشا)، وكان أبوانا عاملَيْنِ في شركات التّمور، جمعتْنا ـصغيرينِـ ملاعبُ ومسابح ومخابئ، وأتذكّر أنّنا التقطْنا من القُمامة المجلّات المصريّة المصوَّرة، في طريق عودتنا من المدرسة، وملأنا ورقةَ الحياة البيضاء بتوقّعات المستقبل الذي سيفرّق عائلتينا كلاً في طريق. لا أعلم كيف جمع عبد القادر العيداني كتُبَ مكتبته الخاصّة، بعد أن اختار طريقَ السّجن، واخترتُ أنا التعليم في مدارس الأرياف النائية. أظنّ أنّنا التصقنا معاً في جزء من الطريق الشائكة، لكنّ عائلتينا افترقتا في آخرها، واختار كلٌّ منا مقياساً يؤشّر ارتباطَه بحياة الآخرين.

كانت المكتبة مقياساً لم نختلف على ضرورة وجوده في حياتنا، لكنّنا ربما اختلفنا على موقع هذا الوجود، عند افتراق السبيل. فقد بحثتُ عن معنى الوجود في وحدة الكِتاب مع الطبيعة العارية من المعرفة، حين صِرتُ معلّماً في عمق الأرياف؛ في حين

ذهب عبد القادر إلى مكان آخر ليدمج وجودَه المكتبي بحياة المهاجرين في مجتمع ناشئ، بحيّ «الجمهورية». أراد العيدانيّ أن تكون مكتبته التجاريّة انعكاساً لمكتبته المنزليّة، ومقياساً لتفاعل الوجودَين، وميداناً لنضاله بين الجموع التي تنشد المعرفة والارتقاء. ونستطيع أن نقول الآن أن عدد الصحف التي وزّعها صاحب المكتبة على روّادها في حيّ «الجمهورية» ارتفع بارتفاع درجة التفاعل بين الفكر والحياة.

تحتلّ مكتبة عبد القادر العيدانيّ في البصرة مكاناً معروفاً في شارع المكتبات الرئيس، في الحيّ «الجمهوريّ»، ذي الكثافة البشرية والتاريخ الاجتماعيّ والسياسيّ (مثل نظيره، مدينة الثورة ببغداد) وكان إنشاء المكتبة عام ١٩٦١ مرافقاً لنشوء المدينة الأصليّة (الفيصليّة) عندما اكتملَ تخطيطها العمرانيّ في السنوات القليلة اللاحقة لثورة تموز، فاستحقّت بذلك اسمها الجمهوريّ. لذلك يصعب اليوم فصل هذين الوجودَين (الأصغر والأكبر) نظراً لدخولهما مرحلة الإنتاج المشترك للمعرفة الاجتماعية الضرورية لوجود هذه المدينة/ البؤرة/ المولِّدة للأجساد والعقول، في أزمنة الشدّة والرخاء. كما أن وجود صاحب المكتبة (العيدانيّ) في قلب هذه البؤرة ضرورة لبقاء عملية التوليد الاجتماعيّة والمعرفيّة، على الرغم من مظهرها التجاريّ.

سنوات أكثر من نصف قرنٍ من تأسيس المكتبة، تترسّخ في ذاكرة محلة «الجمهورية» وأبنائها، عندما يمنحها الوجودُ المكتبيّ تقديراً عالياً في مقياس النضال الاجتماعي والرقيّ الثقافيّ، الذي يعمل عبد القادر العيدانيّ على بقائه حيّاً وتقدّمياً؛ عسى أن تضيف السنوات اللاحقة ما يجعل المكتبة مناراً راسخاً، يشعّ أمام السائرين نحو المعرفة الحقّة والعدالة الدائمة.

صندوق بريد أحمر

كنّا نمشي لمدرستنا في العشّار، مسافة تزيد على كيلومترين عن بيوتنا، على نهر «الخورة». كنا صبيةً صاخبين، نمرّ بمجموعة بيوت تحفُّ الرصيف، ساكنوها مسيحيّون، فنقف برهة صاغين لنغمات عودٍ صادرة من نافذة بيتٍ منها، وينقطع صياحُنا انبهاراً وامتزاجاً بطقسٍ مجهول لدينا. كان هناك صندوق بريدٍ أرضي، أسطوانيُّ الشكل، أحمرُ اللون، أمام ذلك البيت العجيب، ذي النوافذ الكبيرة، المطلّة على ممشى الرصيف مباشرة، يغرينا بإلقاء رسالةٍ كتبناها على صفحات دفتر الإنشاء المدرسيَ أولاً، وأبدَينا فيها إعجابنا بالعزف المنفرد، المتسلّل من البيت المسيحيّ، خلال مشينا كل صباح لمدرستنا البعيدة عن سكننا الفقير، ثمّ عنَّ لكلّ صبيّ منا إلقاء رسالته في فتحة صندوق البريد الجانبية بعد ذلك. أمّا العنوان، فلم نفكّر في أن يكون جزءاً أساسياً من لعبتنا، ووجّهنا رسائلنا لعنوانات مخترعة لا وجود حقيقياً لها.

منذ وقت المدرسة ذاك، وصندوق البريد الأحمر شكّلَ علامةً راكزة في الأرض، تدلّ على نوعين من البيوت، وطبقتين من البشر، بل أكثر من طبقة تستقبل رسائلَ شتّى، يستغرق وصولها وقتاً طويلاً. لكن تلك العلامة الأسطوانيّة_ إضافة إلى سحرها المرتبط بذكرى موسيقيّة مسالمة، رقيقة ومستترة_ أصبحت دليلنا، وقت العطلة المدرسيّة، للبحث عن الرسائل التي تحمل ظروفُها طوابعَ بريدٍ عالميّة؛ وكنا نعثر عليها في براميل القُمامة خلف بيوت المسيحيّين نفسها. كانت أغلفة الرسائل

التي نلتقطها من البراميل، مع المجلّات المصوَّرة، تشدّنا الى تلك المنطقة المدهشة، وتدعونا الى المراسلة مع أشخاص مجهولين قرأنا عنوانات سكنِهم على صفحات المجلّات الملتقطة من القُمامة.

سكنت هاتان العلامتان_ صندوق البريد الأحمر، وطوابع البريد على أغلفة الرسائل القادمة من بلد غريب_ خاطري المعلَّق بفقدانهما مع غيرهما من علامات الوقت الخمسينيّ، الملكيّ الغارب. كان هناك على الدوام وعدٌ بتلقّي رسالة من صديق يهوى جمع الطوابع كما أهوى، شخص حقيقيّ أو مزيَّف الهويّة، من دِيني أو ممن يخالف ديانتي. الشرط الوحيد أن يعادلني المراسلُ في العُمر والهواية، تتملّكه رغبةُ المقايضة البريديّة كما تتملّكني. وبعد سنوات طويلة من الخيبة والقعود والاحتباس خلف الأبواب المغلقة، صارت الهواية_ المقايضة بحثاً عن سبب للخروج على القواعد والأعراف في المكان الذي أقطنُه، الخروج على رأي الجماعة/ المجتمع اللّا خيالي، حيث لم تتبقَّ منه غير علامة صندوق البريد ماثلة أمام عيوننا الزائغة، كجبل أحمر يلوح وسط الموج البشريّ الذي أخرجته ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ من بيته، ثم ألقته مشتّتاً، عارياً من لذاذة الهواية البريديّة التي عصفَت بها الأهواءُ والمنافع من كل جانب ومكان. اتسع عالمنا، الذي اكتشفناه بأنفسنا من عالم القمامة، وأزاح رغباتنا وأذابَها بآلاتٍ أكثر ضجيجاً من نغمات الموسيقى، المتآلفة بسلامها المستور خلف النوافذ.

كان التحوّل مثيراً، من فطرة المراسلة إلى مرحلة الاشتباك بالجموع والانقياد لعاطفتها العنيفة. جميعنا، نحن أبناء الأمس والحاضر، أصبحنا محشورين في سفينة واحدة مشدودة للساحل، ننتظر مقايضةً من نوع آخر، تقتلعنا وتنقلنا إلى عرض

البحر، مغادرين هواية المبادلة الخياليّة للأسرار، التي اكتشفناها على اليابسة، بلا كلفة أو مغامرة عنيفة.

اليوم، قد يعني فقدان أساليب الرسالة البيانيّة، المفرِطة في التفاؤل والثقة والتفاهم، المختومة بختم المسافات الأرضية، صدمةَ ماضٍ بريء، قطعاً حضارياً فرضَه التقدّمُ في وسائل الاتصال، بما فيها وسيلة المراسلة الإلكترونيّة على الشبكة العنكبوتيّة. وليس هناك من دليل على أنّ الرَّشح العاطفيّ لرسائل الأمس الجيّاشة، ستعوِّضه رسائلُ الانترنت بأنواع من البيان الفوريّ، المختصَر، والصريح. فالجوع إلى خطاب المسافات الأرضية يزداد عكسياً مع زوال العلامات البريديّة المسيَّرة بطابع البريد وختمها الأزرق، في عالم الأسطوانات الحُمر، التي كانت تعترض الطريق، قرب المنازل.

ستظلّ أيقونة صندوق البريد تشتغل بضرورتها الاتصاليّة «السريّة» في خطاب الرسالة الالكترونيّة، رغماً من انكشاف أيّ مضمون لرقابة المركز العالميّ المهيمِن على رسائل مواطني الكُرة الأرضية. كما سيطالب الخطابُ البريديّ الجديد بتشفير الرسالة عبر عنوانات وهميّة (الإيميلات الشخصيّة) وترشيحها ممّا رَسَبَ من خطاب الرسالة الخياليّ القديم، لغرض المرور في دوائر الرقابة الإلكترونيّة. ولن تنقطع «أدبيّة» الرسالة الجديدة عن طلب الحفظ والأرشفة بشكل من الأشكال، والاستدلال على عنوان حقيقيّ بين عنوانات الأمس المعطَّلة.

من ناحيةٍ مجاورة لخطاب الرسالة الأدبيّة المتغيِّر، ستظلّ كتابة نصٍّ يستورِثُ أجواءَ محطّات البريد هاجساً حاراً لكُتّاب القارّات الخياليّة، خاصة أولئك المتعقّبين أيقونات الزمن البريديّ القديم، المتنقِّلة من مكان إلى آخر، عبر وسائط تقليديّة،

وأولُّها أيقونة صندوق البريد الأسطوانيّ الأحمر، الراكز في الأرض. ستُبطئ عجلةُ الزمن مُعَشقَّة بأسنان الطابع البريديّ، وتستدير مع ختمه، قبل أن تواصل سيرَها إلى عنوانها. قد تضِلُّ رسالةٌ طريقَها، كما حدث عند سقوط طائرة الكاتب الفرنسيّ- أنطوان دو سانت أكزوبريّ، أو يتعرّض قطارُ البريد إلى سرقة، وقد تدهَس سيارةٌ دراجةَ ساعي بريد- في مصادفات النصّ الذي يتّبِع طُرقَ البريد القديمة- لكن رسالةً ما، بطاقةَ بريد، ستصِل بأعجوبة رغم تلك المصادفات، فيكتملّ النصُّ بوصولها إلى مقصدِها.

إنه ليس نصّي/ قصتي وحدي، فلعلّها قصة أصدقاء ارتبطتُ معهم برابط المراسلة الوثيق، في وقت تخلّى كثيرون منهم عن وعودهم بمواصلته. من جهتي، أجمع رسائلَهم وأستخلصُ منها روابطَ متجدِّدة، أرضية وإلكترونيّة، قصيرة أو مطوَّلة، ثم أفرِز الطوابعَ والأختام وأجعلُها عتباتٍ ونوافذ، أنظرُ من خلالها إلى مسافة ذلك الطريق المندثر، الذي اعترض ممشاي إلى المدرسة، في صِباي، صندوق البريد الأحمر.

لعلّي أختارُ من هؤلاء الأصدقاء الأوفياء، رسائلَ القاصّ الموصليّ أنور عبد العزيز، الذي ظلَّ على عهده بالمراسلة حتى وفاته. بين مئات من الرسائل التي احتفظتُ بأغلفتها وأختامها في دُرج خاص بمكتبتي، لربّما أؤرشِف رسائلَ أنور عبد العزيز، مع رسائل قليلة وردتني من مراسلين غرِقت سُفُنُهم في بحر الضياع والنسيان؛ أستدِلُّ بها على أزمنة الصداقة الأدبيّة الحقّة، والرأي القلِق الذي يبحث عن مُستقرّ له عند قلوبٍ حانية لا تعرف المجافاة والنُّكران.

وإنه لأمر محزن أن تنقطع رسائلُ أولئك الذين توقّفت سُفُنُ رحيلهم، ولم تغادر تلك الضفّة من أعلى نهر دجلة نحو الجنوب. أرثيهم بصمت، وقد أتخيّل صناديقَ البريد الحُمر صارت قبوراً لهم!

٢٠/ ٣/ ٢٠١٧

موت بائع الصحف

أعتقد أنّ كلمة «موت»-الأكثر برودة بين الكلمات- ليست أنسبَ من غيرها لوصف رحيل آخر بائعٍ للصُّحُف في العشّار، ناصر سالم، المكنّى بناصر أبو الجرايد، في العاشر من تشرين الأول ٢٠٢٠. فقد ارتبطَت هذه الكلمة الباردة_ وقتاً طويلاً_ بانقراض أشهر باعة الصُحف المُرتكنِين ثلاثَ عُقَدٍ بسوق «المَغازات»: (وشّاح حمود يقابله نعيم طعيّن: في ركن البنك العربي، ومحمد عبد السادة: في ركن محلّات باتا للأحذية، وخضير حَبش يقابله قاسم الكُتُبيّ: في عقدة تفرّع سوق الصّيادلة والمطاعم والتوابل). وهؤلاء هم رموز الحركة اليومية للسّوق وشهودُها وموزِّعو أخبارها حتى قيام الجمهورية عام ١٩٥٨، وقد سحبَهم الموت جميعاً إلى جبّانته من دون ميراث يُذكر، غير ظلال الزمن المنحسِر في أثرهم.

وفي حين احتلّت ثلاثُ مكتبات كبيرة المواقعَ ذاتها، في سوق «المغازات»، إلا أنّ البسطات الأرضية الثلاث لباعة الصُحف، فاقَتْها في استقطاب روائح المخازن التجارية بنكهاتها المميَّزة: الأزياء والأحذية ولوازم التجميل إضافة إلى التوابل. وفوق هذه الخلطة الحِسّية والجمالية علا شأنُ الجريدة والكِتاب عنواناً لعصر_ الخَبَر وموزّعيه من صحفيّين وباعة كتُب وجرائد، إضافة إلى قرّاء يافعين متفرّقين، وطاعنين في السنّ اقتعدوا المقاهي ودكاكينَ التجارة. كانت الجريدة حاملَ إعلانات ودليلَ شهرة وصوتَ مغمورين؛ سويّة بما تنشره من أخبار الوفيات أو اقتران الأزواج أو التحاق مواليد بالأحياء_ مضماراً تختلط فيه الألعاب والملاهي بمجالس

الحزن، ومرآةً تنعكس عليها دوراتُ العمل والعطالة، وجداولُ الوقت المهدور والملموم في أوقات نادرة، كالمباريات الرياضية، وعروض دور السينما، وبعثات الطلاب الدراسيّة.

ولولا هذه الخلطة المميّزة، لَما اختلطت شخصياتٌ أرستقراطية من ذلك العصر بفقراء ومشرّدين يموتون على قارعة الطريق، ولا قصورٌ شمّاء بأكواخ القصب المشيدة على ضفاف الأنهر، ولا مخبرو دوائر الأمن بالمواقع الكامنة في الزوايا وأركان البسطات الصّحفية، ولا نشأت سِيَرٌ لطلبة مغامرين؛ ومنها سيرتي الشخصية التي نَشَأت على الاقتران السرّي بين كِتابٍ مدرسيّ مملّ وكرّاس سرّي، مصفرّ الورقات، تتداوله الأيدي بحذرٍ شديد. يغادر الطالبُ المراهق صفوفَ الدراسة، ويبحث في بسطات الصُّحف عن كراريسَ السّياسة والسِّيرة الشعبية لأبطال الماضي، ممّا تحتقره المكتبات الكبيرة وتخشى ترويجَه. إذ ذاك التحقَ وعيُ الطالب الحِسّي، المأخوذ بحركة السّوق، بكرّاس تذكاريّ عن إعدام قادة الحزب الشيوعيّ في العام ١٩٤٩، وبُهِرَ بسخونة الحوار في كرّاس آخر بين السّفير البريطاني والشيخ الخالصيّ؛ وكانت سيرة الزير سالم قد أخذته إلى حافة الحلم، قبل أن تُطلِعه كراريسُ البسطات الأرضية الأخرى على نوع من «الموت» اخترقَ وعيَه مثل طعنة نصلٍ حارّ. أصبحت الكلمة الباردة ذات رنين خاص، منذ قراءتها أوّل مرة تتردّد حول رؤوس المشنوقين في الكرّاس الأوّل.

من هذه العُقَد الداخليّة للسّوق، انبثقَ أكثر من كُشك ومكتب لتوزيع الصُّحف وبيعها على محيط السّوق الخارجي، أشهرها مكتب فيصل حمود، القريب من الثانوية المركزية بالعشّار؛ لكني سأخصّ بمنشوري بائعينِ للصُّحف هما: عبد هزّاع وناصر سالم، الممثّلينِ لخبرة حياةٍ سرّية تتداول الأخبارَ بقيمة السيطرة والمال. فالخبرُ سيّد

الشوارع الخالية الشجاع، أوقات الانقلابات والاضطرابات السياسيّة العاصفة، بينما يتكدّس المالُ الجبان في خزائن التجّار والصّيارفة والمُرابين، وينسحب للداخل برائحته التي غطَّت عليها رائحة التوابل (كلتا الرائحتيّن مجلوبة بسُفُن المستعمرين ومحتكري تجارة التّمور والتّوابل ومبشِّري الحركة الماسونيّة وسَحَرة الصُوَر المتحرّكة والطباعة والمشروبات الرّوحيّة). كان عبد هزّاع «رسول» الأخبار التي تنشرها الصُّحف المحلّية والمركزيّة، يطويها ويغلّفها ويُعنونها، ثم يوزّعها على التجّار والأطبّاء والصّيادلة، منطلقاً بدرّاجته من كُشكٍ صغير أمام الثانوية المركزية، جوار المعهد الثقافيّ البريطانيّ. لم تفُتْني أبداً ابتسامةُ موزّع الصحف هزّاع، تلك التي تخلّفت عن قراءته طرائف مجلتي «الوادي» و«قرندل» الساخرتيّن، فقد انطبعت الابتسامةُ السّاخرة تحت شاربيه النحيفين، علامةً تلوح من رصيف الثانوية المقابل لكُشكه، ومفتاحاً لإدراك سِمة العصر المتغيّر برجاله الجُوف، المحشوّين بقشّ التفاهة والجشع والابتذال الجنسيّ- في ملاهي الليل، في الشارع الموازي لموقع كُشك الصّحف. رجلٌ ساخرٌ واحد، ذو بداهةٍ صحفية، سينقلني قريباً، هو الآخر، من كلمة «الموت» الشائعة في الهواء، إلى وعي الحركة السرّية.

سيحيط كشكُ الصّحف الآخر _ كُشكُ ناصر سالم_ نفسَه بعشرات العلامات التي ورِثَها من كُشك البائع الأوّل عبد هزّاع. سيودِّع عبد هزّاع_ الموزّعُ أخبارَ العصر السّاخرة_ كُشكَ البائع الثاني ناصر سالم ويمضي غائباً على درّاجته الخفيفة من دون رجعة. أمّا البائع الثاني فسيستقرّ في عرينه كأبي الهول، متأملاً الحركة اليومية المضطربة ذاتها، تنحدر من الجسر نحو ساحة «أمّ البروم». حملت الحركةُ الدائبة، كطاحون في رأسه، عشراتٍ من أطفال منتصف النهار، وصبّاغي الأحذية، ومتسوّلات الساحة المخبولات، والنقابيّين وأعضاء الحزب المتقاعدين، إضافة إلى

بائع الفياغرا وأدوية الصُّداع، وبائع الشّاي الملاصق لكُشكِه. ستظهر الابتسامةُ «القرنديّة» على شفتيه كأنّها الكلمة المحذوفة من كراريس البَسّطات الأرضية، الكلمة/ العبارة التي سقطت من وعي الأمس المراهِق، والتقطَها الموت، ونسجَ حولها سيرةَ الحاضر المهمومة بمشكلاتٍ من نوع آخر.

نستطيع اليوم، بعد موت ناصر سالم، بائع الصُّحُف، أن نتناقل المواقعَ والبَسّطات، بالسهولة نفسها التي نستبدل بها كلمة «موت» بكلمة «انقراض»، وكلمة «مِشنقة» بكلمة «كُشك»، أو كلمة «قاصة» بكلمة «درّاجة»، وكلمة «جسر» بكلمة «كراج».. وغيرها من المبادلات التي تسمح بإنشاء نصٍّ لا يتزحزح عن مكانه، مماثلٍ لمسرحية آرثر ميلر «موت بائع متجوّل».

ستطوف العلامةُ الباردة في الهواء، مع عجلات السيّارات وغبار الأقدام في الساحة، ثم تركن بهدوء في زاويةً مع فضلات المطاعم، حتى تصبح بعدئذ هويةً تلصَق بكلّ بائع صُحفٍ يرِث الابتسامةَ «القرنديّة» لعبد هزّاع وناصر سالم. إنّها أصدق العلامات تُهدى لمن يُعوزهم الدليلُ على عصر مضى بأعاجيبه، وعصر علّقَ أعاجيبَه إلى حين وأجلٍ مكتوب مطبوعٍ بأعمق الحروف والكلمات والصُور، على طبعة جريدةٍ قادمة من العاصمة.

٢٠٢٠/١٠/١١

حكايات من كتاب النَّخل في باصورا

١. كِتاب النَّخل

صنَّف الأقدمون كتُباً كثيرة في النَّخل إلا أنَّ كتاب «باصورا»(*) ينفرد عنها في نظامه وإحالاته إلى حكايات الزّارعين والقاطفين. كانت «باصورا» تمتلك أكثر من نسخة محرَّفة عن هذا الكتاب، جاءت الحروب عليها جميعاً. ثم أصبح اختراع نسخةٍ جديدة من الأصل عَمَلَ كلِّ قَوّال وحَكّاء فيها. ويحقّ لكلّ حفيد من ملاّكي البساتين أن يدّعي لنفسه نسخةً أصليّة من الكِتاب. أمّا عبيد السِّباخ وعمّاري الأرض وطوّاشي التَّمر فهُم أصحاب النُّسَخ المُحرَّفة من الكتاب، الذي يغلق عليه الملاّكون صدورَهم وأقفالَ مكتباتهم.

دعني أحدّثك عن نسختي، أنا «الطوّاش»(**) الموسميّ، وأحدُ المحرِّفين الصِغار؛ ولا أطلب على إعلامك مِنّة ولا عوضاً، لكنّي أكتفي بدراهم قليلة من أجل الطريق. يوماً ما كانت «باصورا» أرضَ نخيل، وتعمير اللسان بمفردات السُّكون والتبتّل والحلم. ويتسطَّر النخلُ في نُسختي من الكِتاب كما تتأسطَر الحكاياتُ على أكتاف مَن حمَلوا الكِتابَ ثم اختفوا في واحدة من دورات الطوفان والوباء والحروب. إنّ ابتكار نُسخةٍ جديدة من كتاب النَّخل سيغدو عملاً أسطورياً بحدّ ذاته.

---

* باصورا: من أسماء البصرة.

** الطوّاش: عامل قطاف التمر الأجير.

لا يُعرَف تاريخٌ لتلك السُّطور المؤسطَرة، فقد ظهرَت أشكالٌ نَخْليّة على ألواح الطِّين السُّومريّة قبل الطوفان، يوم تقاسمَت الآلهةُ زراعةَ الأرض مع البشر. وبعد زمن طويل من فجر السُّلالات، نقل المهاجرون من أرض جزيرة العرب نَوى النَّخل وزرعوها في السهل الرسوبيّ الذي انسحبت منه مياه الفيضان. أمّا حكايات هذا النزوح والتنقّل والزَّرع فقد تلاشت مع أشباه الآلهة الذين خطّوا السطورَ الأولى على الرُّقُم والجدران والتماثيل.

تعني تسمية «أرض السَّواد» العراقَ، مهدَ النَّخل والكتابة وملاحم الخليقة البابليّة. وعميقاً في أقصى الجنوب العراقيّ، نشأت «باصورا» على خرائب مملكة «ميشان» القديمة، وبدَورها اعترَت المدينةَ الجديدة لعنةُ الخراب، فصعدَت من أعماق طبقاتها نسخةٌ فريدة من كِتاب النّخل. أنت على الطريق القديمة التي تخترق غابات النخيل، تبحث عن جِرار الدِّبس المعتَّقة في صوامع يفوح منها لقاحُ الطَّلع، وقد تلتقي في منعطف بستانٍ على واحد من أولئك المؤسطِرين، يعرض عليك شراءَ نسخةٍ من كِتابه، وهي نُسخة محرَّفة في الأغلب.

أنت على الطريق نفسها طريق الحكايات تتدبَّق أصابعُك بما سالَ من قَطْر التمر، وتلتقط ما بَرَمَتْه الألسنُ الأولى من حبل الحكاية؛ ولعلّك تُمسك بطرف السّطر الأخير المتصل بكتُب الأصمعيّ والسّجستاني والجاحظ والحريريّ فتفكّ عُقَدَه وتبرُمه ثانية في ظلّ نخلة منسحِقة.

تُدخِل إلى كتابك ـ كتابِ النَّخل ـ مفرداتِ الأطوار المتعاقبة لنشوء البُسْرة حتى استوائها فسيلة، ثم تطاولها نخلةً، فاستدقاقها وعروجها سنيناً ومواسم وأعماراً متوالية. تحتاج إلى أكثر من عُمر ومفردة وسطر لتكملة الكِتاب، وحشوه بحوادث

من ليل البساتين، وحكايات عن تحوّل الأدميّين في صُور حيوانـاتٍ عُمِّرت مئـات السنين.

تحتاج إلى أكثر من طريق وعَيْن وإحساس لتـدوين حـالات الإعـمار والانهجـار، التشاكُل والامتزاج، ثم الانسحاق تحت عجلات الـزمن ودروع الغُـزاة والفـاتحين. أكثر من فاتح فارسيّ وسلجوقيّ ومغوليّ وتركيّ سعى وراء النسـخة الأصـلية مـن كتاب النّخل، فوقعت في يده نسخةٌ محرّفة من ادّعاء العبيد والفلاحين، منقولـةٌ عـن ملاّكيهم الراحلين.

أرض السَّواد ـ ميسوبتاميا ـ أرضُ خصبٍ ورخاء، قطّعتها الحـروب إلى أقطـاع سَطريّة وألواح مخرومة. دورةٌ مـن الخـراب والهَجْـر تـدفع بكتّابهـا إلى النسـيان ثـم الظهور من جديد بصفحاتٍ مرزومة بخيط مبروم، وجِلْد مصـمَّغ بصُـمغ الجـذوع المُعمَّرة. إنّ عُمر نسخةٍ من كتاب النَّخل هو عُمر هذا التحوّل الطبيعي والأسطوري لمالكيه المتوالين.

تغادر النخلةُ سطرَ النهر، وتهجر جنّـة البُسـتان، لتنعـزل في بيـت، وراء سـور في المدينة. أمّا كتاب النّخل فيظهر فجأة في دكّان بسوق الورّاقين، وزوايـا المتكلّمـين في المساجد والتكايا، ومكتبات الحائزين والناسخِين.

تُغلَق الأبوابُ على جذع النّخلة، وتنقطع الطريـق إلى حكايتهـا، فتلتحـق بعمـود مكتظّ بالمفردات الدخيلة في قاموس الخَلْق البابليّ والجَزَري وكِتاب الطبيعة الأصلي. يعتكف جامعُ الحكايات إلى جانب نخلته وينهجِر مثلها. فصـلٌ آخـر مـن التشـاكُل الطبيعي والهجرة العكسية إلى رأس السّطر الأوّل، إلى أصل الحكاية الأولى.

البُسْرة العتيقة تندسُّ تحت بَشَرة الرجل السّمراء، وينزوي رمزُها في طيّات قاموسٍ تفوح من صفحاته رائحةُ الطَّلع. يعيد الرجُل المُعمَّر كتابَه إلى موضعه بين الكتُب، وينسى مكانه؛ يعود الكِتاب إلى طبقته السّحيقة. يضيع أثرُ اللقاح ويندثر أصلُ الكِتاب ويستحقّ أن يُنسَخ من جديد، في مطبعة حجريّة.

دخلَت النخلةُ بيتَ الفكرة، بيتَ الأسطورة، بيتَ (ننتو- مامي- عشتار) الأمّ الولود، المعظَّمة التي يتشاكل اسمُها الثلاثي باسم النّخلة. وفي أقصى بيتٍ في المدينة، وراء أبخرة الماكينات الهادرة والسيّارات المسرِعة، تنعقد جلسات «التعزيم» الطقسيّة، وتبدأ استعادة الحكاية من ألسنة الضيوف المتقاطرين من عصور ما قبل الطوفان. ما أكثر القوّالين الذين سيجلسون أمامك بملابس المدنيّة الحديثة، بينما يخفون تحت جلودهم مياسمَ الحكاية المؤسطَرة لكِتاب النّخل.

لكنّك قد تلجأ أحياناً إلى بيت القابلة (الأُبُلّيّة)* الأمّ الفطريّة، أمّ الفروج الخصيبة، لتنتزع منها حكايةٍ لم يرْوِها لسانٌ من قبل. أنت لا تعرف عُمراً لهذه القابلة، لعلّها الحفيدة المفترضة لمامي- عشتار، أمّ الخِصْب والحرب، وأمّ مواليد «الأبلّة» قاطبة، مدينة الظلال والخيال.

كتاب النَّخل يتفرّع في السرّ- بلُغة الأوّلين، لغة زيوسدرا وأتراحاسيس وأوتنابشتم، ملوك الخلود الرافدينيّ. لكن النّسخة السرّية لكتاب الحكايات، ستلتفّ بأغصان الغابة التي ظهر فيها أمراء الكلام في العصر- العباسيّ، الجاحظ والأصمعيّ والحريريّ، وما أضاف عليها الأدباء والمترجمون في عصور لاحقة. نما الكِتاب واستوى كما تستوي الفكرة الراحلة من مكان إلى آخر، وما يبتكره عصر بعد

* الأُبُلّيّة: نسبة إلى مدينة الأُبُلّة القديمة.

عصر. وتستوي صورة الكتاب الأخيرة، فتحتوي أنواعاً من مفردات الخلْق والنشوء على ضفاف الأنهار، وأطواراً من العمل الشاقّ تحت لهب الصيف العراقيّ، وأخباراً عن مواليد الفروج تحت ظلال النّخيل.

أبطال الحكايات المُعمَّرون يلتفّون حول القابلة العظيمة (الأمّ الأبُلّيّة) كأعجاز نخلٍ خاوية، يواصلون تقليداً «تعزيمياً» غاية في القِدَم، طقساً من طقوس الخِصْب التمّوزيّة. في مجلس منقطع تحت ظلال النخيل، يستمع السُّفراء والشُّعراء والصّيارفة والتجّار إلى الحكاية تدور من جديد، بلسانٍ من ذهبٍ وطين.

كانت هنا نخلة، كان هنا بُستان، موسم قِطاف، مربد تُمور، جوخان(*) ومَكبس، موسم فرح وسَمَر ورقص وغناء. صوتٌ ينعكس في صوت، وأغنية تنعقد في لحن أغنية. كان هنا فلّاحون زنوج سلَخوا السِّباخ وزرعوا الفسائلَ وأقاموا البيوت. كانت هنا ثورة أقامت عاصمةً لها باسم «المختارة». كان هنا عليّ بن محمد قائد الزّنج، كان هنا حُكاة خرافيّون. ثم حدثَ خراب، وهُجِرت «الأبُلّة» إلى موقع آخر اسمه «الموفقية» على دجلة العوراء، حكمَه ولاةٌ من آل عثمان وآل الزَّند وآل أفراسياب، ثم آلَ إلى حُكم الشيخ خزعل وآل الكوّاز وآل باش أعيان؛ دورة أخرى من الحكاية وتأسطُر جديد لكِتاب النّخل.

* جوخان أو يوخان: تسمية محلية للبستان.

نشر النصّ مترجماً إلى الإنكليزية في مجلة (البوابة التاسعة) الصادرة في بيروت ٢٠١٤.

٢. آباء مفترَضون

لكلّ قوَال وحكّاء وطوّاش (مُحرِّفٍ لكِتاب النَّخل) أبٌ حقيقـيّ باسـمٍ مشـهور، وآباءٌ افتراضـيون لا عدَّ لهم. قد تلجأ إلى نَسَب رجلٍ عظيم، راعٍ وحكيم، وقد تحتاج غيره ينتسب إلى عائلة المخلوقـات الطبيعيّـة الخُضْـر، السـاكنين في صُـلب الأجـداد المجهولين، ترِثُ من أحدهم نسختَك الأصلية من كِتاب النّخل.

أنا شخصياً، ولِدتُ لأبٍ يعمل ميكانيكيّاً في ورشـة تصـليح محرّكـات الـزوارق البخاريّة التابعة لشركة تجاريّة بريطانيّة اسمها هِلـس إخـوان (Hills Brothers) فتحَتْ لها فرعاً في البصرة لتصدير التّمـور، مـع عـدد مـن الشر ـكات التـي دخلـت العراقَ في إثر الاحتلال العسكريّ عام ١٩١٤، واستقرّ معظمُها عـلى سـاحل شـطّ العرب. قضـيتُ طفولتي بين الورشـة التـي يعمـل فيهـا والـدي والجسرِـ الخشـبي (الأسكلة) المقابل لمقرّ الشركة، وتُربَط إليه زوارقها، متطلّعاً إلى البـواخر الراسـية في عرض النهر وطوّافاتها الكبيرة، وتلك المغـادرة نحـو الخلـيج. بـاحَ لي النهـر بحلـم يقظتِه، بين حركتين من المدّ والجَزْر الطبيعيّـتـين، وأرشـدني إلى آبـائي الافتراضـيين، الذين قد يأتي التيّار المتناوب بجثّة أحدهم. كان ذاك أحد الأحلام التي شـاركتُ بـه النهر الطاعن في السنّ.

كانت الشركة البريطانيّة تمتلك عدداً مـن مكـابس التّمـور عـلى ضـفاف الأنهـار المتفرّعة في بساتين الصَّوب الآخر من شطّ العرب، وكانت رحـلاتي مـع والـدي إلى تلك المكابس قد أدخلتني في مجاهل القُرى المندسّة بين النخيل، وأوحَت لي بملاحـم القِطاف والكبْس والتحميل على ظهور السّفن الشّراعية. كانـت الفطـرة الطبيعيـة،

والإلهام الخيالي لحكايات العمل، قد ملأتـا واعيتـي الفتيّـة بسـطور أولى مـن كتـاب النّخل، قبل أن تتسلّل الأشكال البدائية لكائنات النهر الخُضر، الآباء المجدولون من الظلال الكثيفة، لتمنحني لغتُهم الهامسة مفرداتِها المُبهمَة.

احتوى كِتابي ـ نسختي مـن الكِتـاب الطبيعـي ـ أسرار انفـلاق التمـر وكبْسِـه في الصناديق والسّلال، خلال النهار الحار. كانت الأصابع التي تفلِق التمرَ وترصُـفُه في الصناديق، تكبِس مع الحبّات الحلوة الكلمات الجديدة، وتلفـظ شـفراتُها الحـادّة مـع النّواة شفراتِ الكتابة القادمة. كنت أعثر على مُنفلقات الأشياءِ الدفينـة والغامضـة، تحت قشرتها الصّلبة أو الرقيقة، وأضـمّها إلى كتـابي؛ بيـنما النهـر يعرفنـي في جريانـه السريع والبطيء على خزائن الأعماق، بانعكاساتٍ حلمية صادمة.

٣. حارس اليوخان... (من حكايات بصرياثا)

في بقعة ضائعة على حافّة الشريط الأخضر الرّطب لشطّ العرب، سمعتُ حكايـةً عن حارس «يوخان» رواها ربّانُ سفينةٍ، تنقل التّمـرَ بـين البصرـة ومـوانئ الخلـيج العربي.

مَنْ تتبعَ سفينةً شراعية عائدة من رحلتها، كهذه السفينة التي سـتُولد منهـا هـذه الحكاية، بعد أن أفرغَت حمولتَها من التّمر في إمـارة (أمّ القيـوين) يسـقط في الحُمّـى نفسها التي يؤجّجها حنينُ الأفق. سيرى كيف علِقت السفينة بالحاجز الغرينيّ عنـد مصبّ شطّ العرب، وأمسكَ الغروبُ بصـاريها، وأغـرقَ الظـلامُ ملاّحيهـا الثلاثـة بجبّته السّميكة. ستنقعُ الكلماتُ بهواء النّهـر وتلصـق مقاطعُهـا البطيئـة في فواصـل الضفّة الطّينية. تعلقت أبصارُ رجـالُ السـفينة بنـور ضـعيف بـين صـفوف جـذوع

النخل، وأطاعَ النوتيّان ربّانهما، فانحدرا في قارب صغير بحثاً عن طعـام في البسـتان القريب. مضى الليل وأطلَّ الصباح، فنهضت الشمس على أطـراف السّـعف، إلا أنّ الرسولين لم يعودا إلى سفينتهما. بعدئذ سنسـمع بقيّـة الحكايـة مـن الرجـل الثالـث، الربّان المنتظِر على السفينة المشلولة.

رفعَ المدُّ السفينةَ فقادها الربّانُ الخبير إلى مرساها على السـاحل المقابـل، وعـاد في صباح اليوم التالي بقارب للبحث عن صاحبيه النـوتيّين. تحـدّثَ الربّـانُ متكهّنـاً أنّ الرجلين توغّلا في شقّ نهرٍ متفرّع، حتى رسا قاربُهما أسفل كوخ على الضـفّة، يسـكنه حارسُ يوخان. كان هذا أحد الأكواخ الضائعة في بساتين النهر، لفظَ سِراجُـه تلـك الليلة وميضَ حياةٍ منسيّة خلف سياج أشجار شـوكيّة. ربطـا الـرجلان قـاربيهما إلى شجرة، وارتقيا سلّماً من جذوع النّخل المُلْس، واقتربا من باب الكوخ.

بعد تجذيف نصف نهار سيصِل الربّان إلى الكوخ نفسه، الذي انقطعت عـلى بابـه آثارُ النوتيّيـــن قبل ليالٍ. وبدلاً من سُلّم الجـذوع وجـدَ الربّـان سُـلّماً مـن الصّـخر الاسفنجيّ الأسود، وقارباً مربوطاً إلى شـجرة ضـخمة تـرشّ النهـرَ بأزهـار قُطنيـة صُفر. كان عجبه قد زاد من شقّ واسع في قاعدة الشجرة، يتغرغـر بالمـاء الأخضرـ، قبل أن يبتلعه في جوفه العميق. ألفى الربّان الكوخَ خالياً إلا مـن حصـير وإنـاء مـاء وعصا غليظة يستعملها الحارس الغائب رتاجاً داخلياً لباب الكوخ، وفانوساً معلّقاً. خرج الربّان إلى اليوخان الواسع وطاف بنخيله المتباعد المرتفع المستدقّ ولم يعثر على أثرٍ لحياة. شاهدَ في أرجاء البستان أكواماً من التّمر متناثرة مغطّاة بحصائر. كان التّمر داكناً توالَت عليه الفصول والمواسم وغسلتْه الأمطار سنيناً. وفي طرف البستان عثـرَ الربّان على مِدبسة في مجراها المكشـوف بقايـا سـائلٍ أسـود. ارتسـمَ اليوخـان تلـك

اللحظة حول المِدبسة، موقعاً بائداً لم تطأه قدَم منذ آخر صيف غابر، جفّفت حرارتُه اللافحة ظلالَ فلاّحيه وكنَسَتْها إلى الأنهار.

رجع الربّان إلى الكوخ واستندَ إلى عمود خشبيّ أمام الباب حتى زحف المساء كغطاء ليفيّ خشن. أأخطأ الكوخَ كما أخطأه صاحباه؟ أم أنّ خطواتهما انتهت هنا ودُفِنت مع خطوات سابقيهم الباحثين التائهين؟ ما داخلَه، لحظتئذ، شعورٌ خاصّ بأنّ الألغاز تصنعُها عُزلاتُ البساتين؛ وهذه أكثر غموضاً من امتداد البحار وليالي الانتظار الطويلة في الموانئ ومطاردة الآفاق الهاربة. وبمثل هذا الانتقال من لغز إلى آخر، لربّما عاشَ حارسُ اليوخان أضعافَ سِنيّ عُمره، وازداد التحاماً في امتداد هذا البستان المهجور.

كان الربّان يفكّر بلغز البُستان، عندما شعرَ باقتراب ظلّ نحيف منه. مرقَ الحارسُ العجوز من جانبه ودلفَ إلى كوخه؛ وبعد حين تسرّبَ ضوءُ الفانوس من الباب المفتوح. كان اللغز بسيطاً إذ كان الحارس أعمى؛ هذا ما خطرَ للربّان عندما حفَّه الظلُّ الأعمى وكاد يرطمه. ثم تأكّد من خاطره وهو يتفحّص الوجهَ الراقد على الحصير؛ كان وجهاً مجفّفاً ممسوحاً، عينان مُطفأتان كعيون نسر من نسور لقمان بن عاد.

اضطربت بقيّة الحكاية، على لسان الربّان، أو لأنّي نسيتُ كيف انتهت. غطسَ الحارسُ المُتعَب في رقاد دهريّ حالما استلقى، وأصبح لي الحقّ في أن أحرِّف الحكايةَ على عادة «الطوّاشين» من فلّاحي «باصورا»، وأضعُ لها نهايتين. الأولى: عثرَ الربّان في اليوخان المهجور على بقايا الحارس النائم في الكوخ منذ أمدٍ سحيق، وقد تحوّلت إلى كومةٍ من العظام بلون الدّبس العتيق. والثانية: عاد الربّان إلى سفينته والتقى

صاحبيه بعد ثلاثة أعوام فأخبراه أنّهما كانا في ضيافة حارس يوخان في الليلة التي غادراه، يسكن كوخاً لا يتذكران موقعه تماماً، وأنّهما لما عادا في الصباح لم يجدا سفينتَهما العالقة في الحاجز الطينيّ؛ وقالا إنّ الحارس في حقيقته كان عبداً فارّاً مع فئة قليلة من الزّنج بعد موقعة «المختارة» فالتقطَه ملاّكٌ من «أبي الخصيب» وجعله حارساً على بستانه. ولّما حصدَ مِنجلُ المنايا مالكَه في زمن غابر، انقطع الحارسُ في كوخه وعاش بعد وليّ نعمته طويلاً.

٤. تقرير باصورا

يتحدّث التقرير عن نسخة مُحدَّثة من كتاب النَّخل، بل إنّ لهذا التقرير أكثر من نُسخة انتشرت على مواقع المجموعات والمدوَّنات في شبكة الإنترنت. كان الأصل في تحرير «تقرير باصورا» جماعة من أصدقاء البيئة المدنيّين، تظاهرَت في الميدان الرئيس احتجاجاً على اقتلاع النّخيل وتجريف البساتين وبيع قطعها لأغراض السَّكن الجماعيّ. وهناك مَن يعتقد أنّ محرّري التقرير مجموعة افتراضية من الموقّعين بأسماء مستعارة على وثيقة تدين «مجزرة النخيل» التي قُطِعت فيها آلافُ الرؤوس بمدافع الحرب العراقية_ الإيرانية المتقابلة على الحدود الشرقية لشطّ العرب، وهذه الجماعة سبَقت أصدقاءَ البيئة في الاحتجاج بثلاثة عقود.

نَسَخَ التقريرُ الجديد مادةَ التقرير القديم وفسحَ الخيالَ لاستغلال أفانين الميديا الحديثة في نشر نُسخٍ افتراضية أبعد تمثيلاً للمراجع الطبيعية والحِرَفية لعالم النّخل، الغارق بالظلال والأساطير، وأوسع تهويلاً لأشكال سردِها. ومن هذه الأشكال المُحدَّثة نُسخة مصوغة بشكل المحاكمة الخياليّة في نصّ نجيب محفوظ (أمام العرش)

أحضرَتْ أمام قُضاتِها ضبّاطَ الحرب الكبار، وتجّارَ الأراضي، ووكلاءَ البساتين المسؤولين عن مجازر النخيل على الساحل الشرقي، وفي أعماق الجنوب الأخضر. وبدلاً من الصُور الزاهية للطبيعة التي أظهرَها التقرير القديم، قدّمت محاكمةُ النّسخة الحديثة أسانيدَ من اختراعات «دافنشي» العلميّة، السابقة عصرَها، طوّرها الجزّارون الجُدُد لجزّ رؤوس النخيل وتقطيع جذوعها في ساعات قليلة، وتجريف ضِفافها ومساواتها بالبرّ الخارجي، وضمّها للحدود السكنيّة للمدينة. وعلى هذه الشاكلة من محاضر المحاكمات كُتِبت نُسخٌ مُروِّعة من تقارير «باصورا» تحت عنوان «الآلات المختَرَعة لتدمير الطبيعة الخضراء» مثل «سكين كردلان» و«دولاب عنتر» و«جزّار الشطّ». وبين هذه الأشكال والعنوانات، وُلِد تقريري عن نخيل «باصورا» بعنوان «تقرير باصورا الأسود».

استخرجتُ عنوانَ تقريري من موضوع رواية علي بدر (حارس التبغ) المصوغ بصيغة تقرير روائيّ عن موسيقار يُقتَل في بغداد عام ٢٠٠٦، تكتبه شخصيةٌ صحفيّة مفترضة تُسمى الكاتب الأسود «بلاك رايتر»، وتنشره باسم صحفيّ آخر شهير تختفي وراءه. وعبر هذه الواسطة الروائيّة، استطعتُ أن أخترع سيرةً متخيَّلة لفلّاح نخيلٍ أختفي وراءها باسم «كاتب باصورا الأسود».

يظنّ الفلّاح -في تقريري- أنّه نخلة ولِدَ منها، وتزوّج بإحدى فسائلها، وأنجبَ خمسَ بناتٍ مُسمَّيات بأسماء النخلة وثمارها. ثم جاء «كاتب باصورا» ليقترِنَ بكبرى البنات المسمّاة «جُمّارة». أما البنات الثلاث (ليفة وشويثة وسَعفة) فقد قُتِل أزواجُهنّ في حروب الخليج، وتزوّجت صغرى البنات «أمّ الدّهن» بتاجر تُمورٍ من البحرين سافرتْ معه. يبدأ تقريري من يوم وفاة الفلّاح/ النخلة واجتماع بناته حول فراش احتضاره، وكانت آخر ما أوصاهنّ قبل أن يلفظ أنفاسه، عبارةٌ سمِعنَها منه مراراً:

«رأسٌ برأس». وكّلتْ بناتُ الفلّاح «الكاتبَ الباصوريّ» للبحث عن تفسير لوصية أبيهنّ، وكان التفسير الظاهريّ للعبارة الذي عثر عليه الكاتبُ حالاً، هو: «نخلةٌ بنخلة». أمّا المعنى الباطني، فقد احتاج وقتاً لكي تُبرِزه حكايةٌ من حكايات النّخل، وتُظِلّه بظلّها ووحيها، لتصبح العمود الفقري لتقريره.

في الليلة التي تظاهر أصدقاءُ البيئة في صيف عام ٢٠١٠ سهرَ «كاتبُ باصورا الأسود» متنقِّلاً بين شخصيات التقرير المُفتَرَضين، المُحتشدين أمام بناية مجلس المدينة. كانت وجوههم الملتمعة في لهب الشموع تلوح كأطباق دبسٍ عتيق، سائل على الأوراق التي يختمونها بختْم صغير من الفضّة، حُفِرت عليه أسماؤهم المستعارة. انفردَ «كاتبُ باصورا» بفلّاح ظنَّه من بقايا «يوخان» جزَّتْه سكاكينُ جزّاري النخيل المُدَولبة، فسأله عن معنى عبارة صِهره الفلّاح/ النخلة. ولم يتأخّر الجواب سوى برهة، ثم انصبَّ كتوقيع سائل على تقرير «كاتب باصورا».

كان هذا الفلّاح قد جاء إلى ميدان المظاهرة بعلامة زُهدِهِ وانقطاعِهِ عن فضاء المدينة الغريب. ربَّتَ على مِنجله المشكوك تحت نِطاقه الجلديّ الذي حزّمَ به وسطه، وقال: «التفسير الحاضر، إنّك ستجد ما تعادله برأس نخلة. رأس حاكم أو رأس جزّار أو رأس نخّاس». ثم استلّ مِنجلَه وفحصَه في ضوء الشموع الشحيح النافذ من بين أجساد المتظاهرين، وأضاف: «لكنّك يعزّ عليك أن تقايض رأساً برأس في صحراء تقطعها وحدَك، لاهبة كفُرن إبليس. ثم يلوح لك شكلُ نخلةٍ منفردة، أو مجموعة نخلات متقاربات، وقد أرهقَك السَّفر والجوع والعطش. سيغمرُك الظلّ العزيز فترقد ثم تحلم بطبق تمرٍ وقدح لبَن، تجدهما عند رأسك حالما تستيقظ من رقدتِك».

تريثَ فلاّحُ المظاهرة قليلاً ثم فسّرَ كلامه: «حينذاك ستفهم أنّ رأساً برأس تعنـي حُلماً بسَفر. فالنخلة رأسُ السَّفر والحُلمُ رأسُ الرجاء. وكلاهما رمزُ باصورا وروحُها الأخضر».

المحتويات

البصرة الكبرىٰ ٥
البصرة – الإسكندرية ١١
البصرة – أصيلة ١٦
البصرة – العاصمة ٢٠
عواصم مفتوحة ٢٤
خافق معلّق فوق موقع قديم ٢٨
المربد وجدَل الأمكنة ٣٢
الطائرة والمطبعة ٣٦
المكتبة الأهلية بالبصرة – الوجود المكتبيّ الأصغر ٤٠
مكتبة «الجمهورية»...بؤرة ومنار ٤٣
صندوق بريد أحمر ٤٥
موت بائع الصحف ٥٠
حكايات من كتاب النَّخل في باصورا ٥٤
١.كِتاب النَّخل ٥٤
٢.آباء مفترَضون ٥٩
٣.حارس اليوخان... (من حكايات بصرياثا) ٦٠
٤.تقرير باصورا ٦٣